

مارك دو مازيير وجوزيف كَولفان

قصبات الأطلس الكبير



ترجمة : حسن أميلي

2022

قَصبَاتُ الأَطْلَسِ الْكَبِير

قَصبَاتُ الأَطْلَسِ الْكَبِير

مارك دو مازيير وجوزيف كَولفان

ترجمة:

حسن أميلي

منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

مركز الدراسات التاريخية والبيئية

سلسلة ترجمات رقم: 53

العنوان:

قَصبَاتُ الأَطْلَسِ الْكَبِير

المؤلفان : مارك دو مازيير وجوزيف كَولفان

ترجمة : حسن أميلي

المتابعة والإعداد للنشر: الوافي نوحي

تصميم الغلاف : مصطفى الحضيگي ، وحدة النشر

صورة الغلاف: Jacques Majorelle. les Kasbahs de l'Atlas, éd . Jules Meynial, Paris, 1930

الناشر:

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

الطباعة:

دار أبي رقراق للطباعة والنشر بالرباط

رقم الإيداع القانوني: 2022MO0990

ردمك : 978-9920-739-57-3

إهداء

إلى يوسف الباهي

في فراساته النبيهة

تقديم

من أعالي الجبال إلى تخوم الصحراء مروراً بالواحات في مجال الأطلس الكبير ينتقل بنا مارك دومازيير (Marc de Mazières) وجوزيف كولفان (Joseph Goulven) عبر مؤلفهما الجميل «قصبات الأطلس الكبير» (les Kasbahs du Haut-Atlas) الصادر بالدارالبيضاء سنة 1932 م، عن فيدرالية هيئات المبادرة والسياحة (ESSI) بالمغرب، والذي زاده أهمية تلك الصور الفوتوغرافية المعاصرة بعدستي دومازيير نفسه ول. گيو (L. Guillot).

وإذا كان هناك حظ للناطقين باللغة الفرنسية في التمتع بمحتوى هذا المؤلف والتنقل مع المؤلفين في جبال وواحات ووديان وصحاري الأطلس الكبير، فإن الناطقين باللغة العربية كانوا بانتظار من يتصدى لهذه المهمة الجليلة، وهنا يبرز دور الأستاذ الدكتور حسن أميلي الذي ترجم النص من الفرنسية إلى العربية، ليس هذا فحسب بل امتع وأقنع بتعريفات وملاحظات بالحواشي لا غنى عنها للقارئ بالعربية سواء بالشخصيات أو المواضع أو بعض المصطلحات الأمازيغية.

ولا غرو، فالأستاذ أميلي الذي ينحدر من مناطق الجنوب الشرقي عالم بخبايا المجال، كما أن تمرسه في الترجمة أبان عن احترافية بالتعامل مع النص التراثي، وهو صاحب تجارب سابقة لعل أهمها ترجمته لكتاب «القصبات الأمازيغية بالأطلس والواحات - المباني الكبرى بالجنوب المغربي» (الصادر سنة 1938)، لمؤلفه هنري طيراس، والصادر عن معهد الشارقة للتراث سنة 2019، وهو الكتاب الذي عني بتوزيعه المكتب الإقليمي للمغرب العربي - الرباط، وحصل على الرقم الأول في المبيعات برواق معهد الشارقة للتراث بمعرض الدارالبيضاء للكتاب شهر فبراير 2020م.

وكتاب « تاريخ بارباريا وقراصنتها » للراهب الماتوراني بييردان، والصادر عن مختبر الترجمة والعلوم الإنسانية، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة الحسن الثاني، المحمدية، 2019م، الذي ذاع صيته في الأوساط العلمية، وكتاب «مدينة الرباط حتى الحماية الفرنسية تاريخ وأركيولوجيا » لجاك كايي، الصادر عن جمعية رباط الفتح للتنمية المستديمة، 2018م، والذي احتفل به في المؤسسات الثقافية بالمغرب، وهو نفس الأمر بالنسبة لكتاب«البحر في التقاليد والحرف المحلية بالرباط وسلا» للوي برينو، والصادر عن المكتبة الوطنية بالرباط، 2016م.

إن المتصفح للكتاب يفتقد المنهجية العلمية الدقيقة التي يعرفها علماء الآثار المعمارية، والذي صرح بها المؤلفان بالقول إن هدف عملهم ليس عملاً تقنيا، أو مؤلفاً مناسباً، بل إعلان للسياح عن وجود منطقة مهمة في المغرب بمناظرها وسكانها ومبانيها العتيقة وهي جديدة تماماً بالنسبة للغرب، خاصة إذا ما علمنا أن وظيفة المؤلف مارك دومازيير هي: رئيس هيئة المبادرة السياحية بمراكش، ووظيفة المؤلف جوزيف كولفان هي: عضوية فريق ليوطي المكلف بتكوين المراقبين المدنيين وموظفي المصالح المختلفة.

و مع ذلك فقد رصد المؤلفان بالأطلس الكبير مشاهد لتراث مادي متمثل في القصبات والقرى والمنازل الطينية والقصور، كما رصدا تراثاً غير مادي متمثل في مشاهد الاحتفالات والرقصات للأمازيغ ووصف لأداء هذه الرقصات وللملابس الرجال والنساء، كما وصفا التراث الزراعي للفلاحين والفلاحات بالأطلس الكبير، وليس بعيدا عن ذلك المعلومات عن النظام الاجتماعي بالأطلس الكبير ودور القائد وعلاقته بالمجتمع والمخزن وحكم الانتداب الفرنسي؛ كما سجل المؤلفان ذكرياتهما وجولاتهما وطرق سيرهما بالأطلس الكبير ببلاد گلاوة، ووادي أونيلا ودادس ودرعة، وببلاد گندافة، وقصبة أسني.

في هذا المؤلف تتعرف على الجبال كتيشكا وصاغرو ومناظرهما الخلابة، كما تتعرف على توصيف جميل للقصبات والقصور، وتتوصل إلى الفارق بينهما معمارياً بشكل دقيق، ولعل من محاسن سعدي أن زرت أكثر المناطق التي تحدث عنها الكتاب

خلال الأربع سنين الفارطة برحلات عملية مختلفة، ما أتاح لي فرصة التمتع أكثر بواقع هذه المآثر التاريخية زمن المؤلفين وحالياً.

وإني إذْ أدعو الله أن يحفظ أستاذي حسن أميلي ويمده بموفور الصحة، أدعو الله أن يحفظ المملكة المغربية ويحفظ تراثها وعلمائها، وأن يجنبنا وجميع الانسانية هذه الجائحة (كوفيد 19) إنه سميع مجيب.

د. يحيى لطف العبالي

أستاذ مساعد في التراث - جامعة حجة - اليمن

تمهيد

تتسم القصبات الأمازيغية، كنموذج أصيل للمعمار في الجنوب المغربي ونقطة جذب للسياحة، بهيآتها المربعة وأبراج زواياها المسننة؛ وقد أثارت قصبات الأطلس الكبير اهتمام الفرنسيين منذ ثلاثينات القرن الماضي، وعلى رأسهم الرسام جاك ماجوريل (J. Majorelle)[1] الذي خلد في لوحاته رمزية التراث المعماري الرائع المنتصب في المرتفعات الجبلية، مثلما في الأودية الصحراوية، مفتتنا بالمشاهد الملونة التي تكونها تلك المواقع، والتي يتماهى فيها البناء مع لون التربة، بخطوطه الطينية المكشوفة المائلة إلى الحمرة في ضوء النهار، وإلى السمرة الشديدة مساءً؛ وفي أحايين أخرى باللون الصلصالي المصفر.

إنها نفس الفتنة التي استهوت من قبل الرسام أوجين دو لاكروا (E. Delacroix)[2] فيما اعتبره «الألوان المغربية»، تأثرا بالخط اليومي لمسار الشمس الذي يجدد زيادة فوق تلك الجدران الطينية السامقة التلون العجيب والمتغير ما بين الشفق والغسق، وتحمر فيه الظلال المعمارية قبل أن تختفي تماما في الليل.

إن تطور القصبات التاريخية المعروفة، مثل قصبات تلوات وكَندافة وأمرديل وتاوريرت-ورزازات وأولاد عثمان (زاكَورة) وغيرها، يبرز كونها إلى جانب دورها الزمني

(1) جاك ماجوريل (1886- 1962): رسام فرنسي، استوطن مدينة مراكش منذ أول زيارة لها (1917)، وفي السنة الموالية نظم أول معرض له بمدينة الدار البيضاء؛ وتبعا لذلك جذبه سحر البلد للقيام بأولى جولاته في الجنوب أسفرت عن نشره « كناش الطريق لرسام في الأطلسين الكبير والصغير « (1922). وأثمرت جهوده سنة 1924 بتشييد منزل على الطريقة المغربية بحديقة أندلسية الطابع في شكلها الأولي، ثم بتوسعة مقره سنة 1929 ببناء فيلا مكعبة إلى جانبه بالتعاون مع المهندسين المعماريين ر, بواصون (*R. Poisson*) وب. سينوار (*P. Sinoir*)، اتخذ منها مشغله الفني. انظر:

Chantal Destrez, Jacques Majorelle - Carnet de route d'un peintre dans l'Atlas et l'Anti-Atlas - 1922, **Péristyles**, 14 (1999), p 5-18.

(2) أوجين دولاكروا (1798-1863): رسام فرنسي من رواد المدرسة الرومانسية، حل بالمغرب سنة 1832 في إطار سفارة فرنسية دامت ستة أشهر، وخلد في رحلته عددا من اللوحات المتصلة ببلاط السلطان وبطبيعة المغرب ومبانيه وفئاته الاجتماعية. انظر محمد بلعربي، مادة دولاكروا، **معلمة المغرب**، ج 12، ص 4107-4108.

تمثل تاريخا خاصا؛ إذ بتكيفها مع سياقها الطبيعي ووحدة الجماعات المتجانسة ومواجهة قساوة المناخ وتحركات الغزاة، فرضت الحياة القبلية الأمازيغية اختيار نمط سكني محصن، مثلته القصبات في أي موقع ملائم، أحيانا في سفوح الأودية، وأحيانا أخرى على ربوات نافرة، وفي أحايين ثالثة حتى عند قمم بعض المرتفعات، واختلط فيه استخدام الطين بالحجارة، مانحا لقصبات الجبل خاصية مغايرة إلى حد ما مع قصبات الواحات طينية الأصل.

وقد شكل الصدى الطيب الذي لاقته ترجمتنا لمؤلف هنري طيراس «القصبات الأمازيغية بالأطلس والواحات – المباني الكبرى بالجنوب المغربي» (الصادر سنة 1938)[1] دافعا لنا للتصدي لقصبات الأطلس الكبير من خلال ترجمة كتاب المؤلفين مارك دو مازيير (Marc de Mazières)[2] وجوزيف كَولفان (Joseph Goulven)[3] «قصبات الأطلس الكبير» (Les kasbahs du Haut-Atlas) الصادر بالدارالبيضاء سنة 1932 عن فيدرالية هيئات المبادرة والسياحة (ESSI) بالمغرب، مع تعزيز النص بصور فوتوغرافية معاصرة بعدستي دو مازيير نفسه ول. كَيو (L. Guillot)؛ باعتباره، من جهة، أسبق كتاب يتطرق إلى موضوع قصبات الجنوب المغربي، واستكمالا، من جهة ثانية، لموضوع الترجمة المومإ إليها سلفا، وتوضيحا للمتغيرات الطارئة على التراث المعماري المتقارب تأثرا بالموقع الجغرافي وبمواد البناء المتوفرة من جهة ثالثة.

+ صدرت الترجمة سنة 2019 عن معهد الشارقة للتراث.

(1) مارك دو مازيير (*Marc de Mazières*) (1954-1883): أكاديمي فرنسي وكاتب وصحفي، اشتغل بالمغرب منذ أواسط عشرينات القرن الماضي في المجال السياحي، وترأس هيئة المبادرة السياحية بمراكش. وقد يسر له منصبه وجولاته بمراكش وبالمناطق المحيطة بها إصدار مجموعة من المؤلفات في هذا الإطار، كان أبرزها «الدليل السياحي للمغرب» (1928)، و«قصبات الأطلس الكبير» بمعية جوزيف كَولفان (1932)، و«جولات في مراكش» (1937).

(2) جوزيف كَولفان (*Joseph Goulven*) (1972-1886): أكاديمي فرنسي خريج المدرسة الكولونيالية (*Ecole coloniale*) (1906)، وبعد اشتغاله بالسنغال ولارينيون انتقل إلى المغرب للعمل ضمن فريق ليوطي مكلفا بتكوين المراقبين المدنيين وموظفي المصالح المختلفة، وفي الوقت ذاته منكبا على تأليف أكثر من عشرين مؤلفا ونحو 200 مقال عن المغرب في مختلف التخصصات، أبرزها « قاعدة مازكَان تحت الاحتلال البرتغالي (1502-1769)» (1917)، و«ملاحا الرباط وسلا» (1927)، وقصبات الأطلس الكبير مع م. دو مازيير (1932) و «ليوطي الإفريقي» (1935)، و «فرنسا بالمغرب – 25 سنة من الحماية» (1937)، و «قلب ليوطي» (1955).

وحتى إن لمسنا فوارق بين المنهج الذي اتبعه طيراس بحكم تخصصه وحرفيته والمنهج المتبع من لدن المؤلفين الآخرين، واللذين تقيدا أساسا بتتبع مسارات القصبات المختلفة والمنتشرة في الأطلس الكبير الأوسط تبعا لتوفير المعطيات الضرورية للقطاع السياحي بذلك المجال، فإن أهمية التأليف كمنت - حسبما لمسنا - في التعريف بمجال شبه مجهول لغير المنتمي إليه، وتوطينا لقصبات كثير منها غير معروف، وبعضها تعرض للاندثار؛ ناهيك عن كون التأليف قد واكب التحولات التي عرفها نظام الحماية في عهد المقيم العام لوسيان سان[1]، والتي كانت تتوجه بشكل متسارع إلى فرض سياسة الاحتلال المباشر، وإخضاع المغرب لاستغلال تام على كافة الأصعدة، فكانت تحركات المؤلفين تدخل في إطار تقديم المعلومات والمعطيات عن الإمكانات السياحية القابلة للاستغلال من جهة، وكذا توفير المعلومات المتصلة بالجوانب الإثنوغرافية والسوسيولوجية التي كانت - كما جاء في الكتاب - تقدم مباشرة إلى المقيم العام سابق الذكر.

(1) لوسيان سان (1867-1938): محام ورجل دولة فرنسي، عين مقيما عاما بتونس (1921-1929)، ثم بالمغرب (1929-1933) لاستكمال مهمة سلفه الجنرال ليوطي، حيث أتم احتلال البلاد، وفي عهده صدر الظهير البربري لعزل الأمازيغ عن العرب فأعطى بذلك إشارة انطلاق الحركة الوطنية. انظر إبراهيم بوطالب، مادة لوسيان سان، **معلمة المغرب**، ص: 4822-4823.

وقد لمسنا الصعوبة التي كابدها المؤلفان حتى من خلال محاولة الوقوف على تحديد الأماكن من خلال الاستئناس بالخرائط الطبوغرافية تتبعا للمسالك، وتحديدا للمواقع، مع سعينا إلى تذييل المتن بالتعريفات الموجزة بالأعلام والأماكن المذكورة تيسيرا للقراءة.

المترجم

استهلال

بقلم السيد لوسيان سان (Lucien Saint)

المقيم العام لفرنسا بالمغرب

بالنسبة للمغرب هي ثروة لا تقدر بثمن، في الوقت الذي تمتد أخيرا بسائطه الفسيحة، وجباله الشاهقة، ومدنه المفعمة بالغرابة في حمأة السلم الفرنسي، وجود الرسامين والكتاب الأكثر أهلية لإدراك طبيعته الحميمية، وشاعريته المتوحشة، وفتنة تاريخ لا يموت، ومفاتن نهضة خصيبة بالمفاجآت المدهشة.

وبنظرة ملقاة على مجموعة المؤلفات المهمة سلفا التي نشرها منذ عشرين سنة مكتشفونا وجنودنا ورواتنا، تسمح بمعية تطورات الأمن والمواصلات والرفاهية بمواصلة كشف الوجوه المتعددة لهذه الأرض التي تتعايش فيها القبائل الرعوية المنحدرة من العصور القديمة، والتجار والصناع المنبعثون بصخب من مشرق مفعم بالألوان، والطوائف الدينية المحافظة على عقيدة ثابتة على الدوام، وجهة الجنوب، ما وراء مراكش، عند أبواب القفار، القصور الحصينة والقرى المغلقة لأواخر الساكنة الفيودالية.

وقد يكون هذا المظهر الأخير للمغرب، الأقل شهرة، الأكثر جذباً، هو ما جعل السيدان م. دو مازيير (M. de Mazières) وج. گولفان (J. Goulven) يحييانه على صفحات هذا الكتاب، ومن دون شك لم يكن بمقدورهما اختيار توقيت أكثر مناسبة لتقديمه للجمهور اليوم.

زار الآلاف من السياح المغرب، وأوردوا رؤى لا تنسى، وغالبا نوستالجيا قاهرة جدا إلى درجة العودة للتسكع في مدنه العتيقة، والاختلاط بجمهورها، والاستمتاع

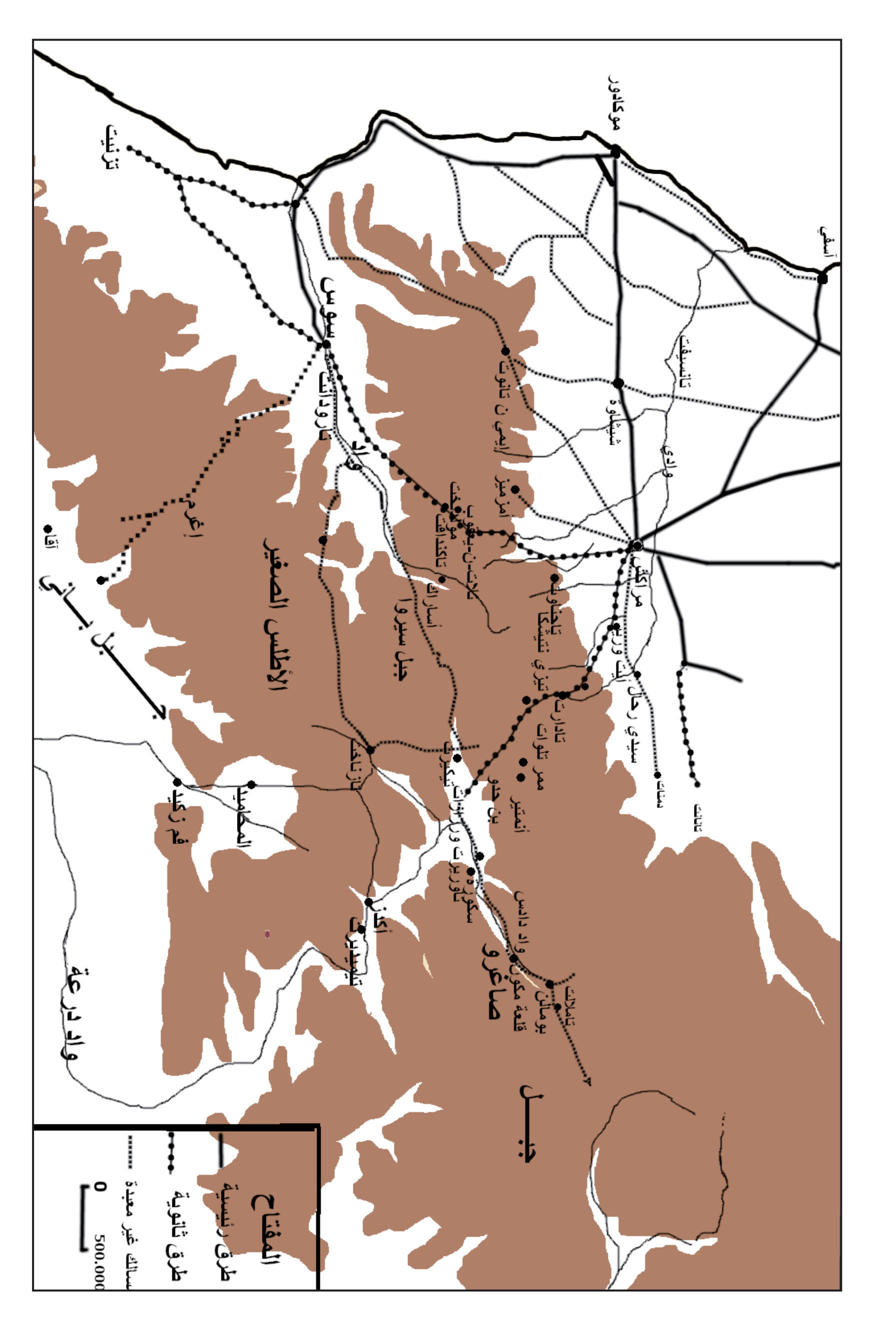
بسكينتها الهادئة؛ ولكن القليل من يعرف بلاد القصبات التي اقتصرت طرقنا فقط على التمدد نحوها عبر ثلوج الأطلس، وعلى ضفاف الوديان الحمراء، وبين القصور الشرسة أمس، والمخلصة في خضوعها للمخزن اليوم.

وإن شئنا، من رحلة في هذه الأودية الوعرة، استخلاص متعة العين والروح التي يمكن أن تمنحها، ولو رغبنا في معرفة الأمازيغ الذين يقطنون بها والدنو منهم، وجبت قراءة هذا المؤلف المكتوب بيد منشطين متميزين للسياحة المغربية، في حس من الحب الدفين للبلد وللناس.

لوسيان سان

القسم الأول

في الجبال الأمازيغية



خريطة طرق وقصبات الأطلس الكبير كما وردت في الكتاب

الفصل الأول

من قمم الأطلس إلى هضبة التبت

يتفاخر سكان مراكش بالعيش في مدينة سودانية المظهر، وسط واحة تحميها نوعا ما من الرياح اللاهبة للقفار جبال الأطلس الشاهقة التي لاذت بها في القرون السابقة ساكنة غريبة، سميت بشيوعٍ أمازيغاً أو شلوحاً.

إن التئام عناصر شديدة الأصالة على مقربة من أوربا، يظهرهم بوثوق كبير في المستقبل السياحي لمنطقتهم، ويستلزم الأمر الإقرار بأحقيتهم في هذا، ونتوخى أن يساعدهم هذا التأليف في التأكيد السريع لكافة أمانيهم؛ وما هو على عتبات هذه السطور هو واجب محمود للتعبير عن امتناننا للجنود والرواد الفرنسيين، الذين بدون كلل وبجهد متضافر ومسترسل، فتحوا لنا منذ أمد قريب سياحة عظيمة للمواقع الرائعة للأطلس الكبير[1]، بل ويدفعون راهنا تقدمهم حتى إلى أودية أقصى الجنوب المغربي، حتى تافيلالت وتخوم القفر الصحراوي الكبير، في حين ها هي فقط أربعون سنة وأقل من ذلك كان مستكشفونا شارل دو فوكو (Ch. De Foucauld)[2]، وروني دو سيگونزاك

(1) شرعت القوات الفرنسية في غزو الأطلس الكبير انطلاقا من سنة 1932 بعد إكمالها لعمليات إخضاع نظيره المتوسط، وتواصل ذلك إلى حين القضاء على مقاومة أيت عطا بقيادة عسو أو باسلام (1934). انظر إبراهيم بوطالب، مادة الحماية، **معلمة المغرب**، ج 11، ص 3568-3569.

(2) شارل دو فوكو (1858-1916): ضابط عسكري فرنسي، ثم راهب وقس كاثوليكي. شارك سنة 1881 في مجابهة حركة بوعمامة على الحدود الجزائرية-المغربية، وقضى جزءاً من حياته بين قبائل الطوارق في الصحراء الكبرى جنوب الجزائر، وواصل جولاته الاستكشافية والتبشيرية في الجزائر والجنوب المغربي إلى حين تعرضه للاغتيال (1916) بتامنراست خارج أبواب الحصن الذي بني له بحماية الطوارق. وقد خلده كتابه الشهير «استكشاف المغرب» (*Reconnaissance du Maroc*) (1888). انظر محمد بلعربي، مادة شارل دو فوكو، **معلمة المغرب**، ج 12، ص 4103-4104.

(R. de Segonzac)[1]، ودوتي (Doutté)[2]، وش. دو كاستري (Ch. De Castries)[3]، وبريف (Brives)... إلخ تعرضوا أحيانا لسوء الاستقبال داخل القبيل الأمازيغي[4].

ليس علينا أن نرى في هذا التأليف عملا تقنيا، أو مؤلفا مناسبا، ليست تلك فكرتنا؛ بل تكمن الغاية التي نلاحقها في الإعلان للسياح عن وجود منطقة مهمة في المغرب بمناظرها وسكانها ومبانيها عتيقة النمط، وهي مع ذلك جديدة تماما بالنسبة لرجال الغرب؛ وندعو ألا يوجد في المراجع المشار إليها في نهاية هذا الفصل إلا رغبة تبرير مزاعمنا، وفي الوقت ذاته أن تكون مفيدة للقراء الذين سيرغبون في ما يخص الأطلس والأمازيغ مراجعة المصادر التي اعتمدناها بإفراط، غير أننا نكرر أن هذا العمل لا يدعي استنفاد المادة، وسنكون مرتاحين إن توفقنا في إعطاء فكرة مضبوطة إلى حد ما عن البلد.

---

(1) الماركيز إدوارد ماري روني باردون دو سيگونزاك (1867-1962): عسكري فرنسي، ومستكشف وكاتب، جال المغرب في مطلع القرن، وخصوصا منطقة الجنوب- الغربي ووادي سوس، حيث ترك مؤلفين «عبر المغرب» (*À travers le Maroc*)، و«أسفار في المغرب (1899-1901)» (*Voyages au Maroc (1899-1901)*). وقام بجولة استكشافية أخرى (1904-1905).

(2) إدمون دوتي (1867-1926): عالم فرنسي، سوسيولوجي واستشراقي ومهتم بالدراسات الإسلامية، ومستكشف، ترك العديد من المؤلفات الخاصة بالمغرب وشمال إفريقيا من أبرزها «السحر والدين بشمال إفريقيا» «ومراكش» و «في القبيلة» انظر إبراهيم بوطالب، مادة إدمون دوتي أو دوطي، **معلمة المغرب**، ج 12، ص 4102-4103؛ وأيضا:

Marcel Mauss, Edmond Doutté, in **L'Année sociologique**, nouvelle série, T 2, Librairie Félix Alcan, Paris 1927.

(3) المقصود بذلك هنري. دو كاستري (1850-1927): ضابط فرنسي، مؤرخ ومستكشف وخرائطي. شارك بدوره في مجابهة حركة بوعمامة إلى جانب دو فوكو على الحدود الجزائرية-المغربية؛ وشرع منذئذ في وضع خرائط للمغرب الشرقي والجنوبي- الشرقي والريفي، ثم في قيادة بعثة لدى السلطان الحسن الأول لتقديم الخريطة الجديدة لدولته، واستغل ذلك لرسم مسار الدار البيضاء-فاس. وقد عينه الجنرال ليوطي إسطوغرافيا لإدارة الحماية بالمغرب (1910)، وهو من أنشأ المعهد التاريخي للمغرب. وساهم بعدة مؤلفات ومقالات تاريخية بالمغرب، غير أن أبرز ما اشتهر به هو إشرافه على تجميع الوثائق المختلفة التي تخص تاريخ المغرب لـ 14 جزء، من مختلف الأرشيفات العالمية والمسماة «المصادر الغميسة لتاريخ المغرب» (*Sources inédites de l›histoire du Maroc*)، العمل الذي واصله خلفاؤه من بعده دون استكمال المشروع، خصوصا فيما يتصل بالعهد العلوي. للمزيد من الاطلاع انظر:

P. de Cenival, Le Comte H. de Castries, **Hespéris**, 1927 et Numa Broc, **Dictionnaire des explorateurs français du XIX^e^ siècle**, T 1, Afrique, CTHS, 1988, p. 68.

(4) في الصف الأول لأولئك الرواد، نذكر مصالح الاستعلامات وهيئة المبادرة والسياحة بمراكش (المؤلفان).

منذ أقل من شهر، قامت شخصية من الهيئة الدبلوماسية الفرنسية برحلة استجمام إلى مراكش، وكان قد جال عبر العالم، عبر عن إعجابه الشديد بقصبات الأطلس؛ وبحثا في ذكرياته عن لفظ للمقارنة المضبوطة أعلن أنها تحيله بدون مواربة على قلاع التبت[1] المقدسة وحصونها. وأضاف أيضا بأن طرازها الخاص الذي لا يشابه قلاع أوفيرن (Auvergne)[2] الخربة، ولا حصون (burg) الراين[3]، ولا منشآت أمريكا الوسطى، قدر ما أنها بمتانة بنيانها وقوة ألوانها شكلت القصبات سحرا حقيقيا للعيون، وإحدى مفاتن الأرض.

هذه تسعيرة بالنسبة للسياحة المغربية، لأن البلد الذي يمنح للفضول العام شيئا فريدا في العالم إن صح القول – بما أن اقتحام التبت ليس سهلا للعدد الوفير – يتوفر في داخله على كنز لا يقدر بثمن. لكن هل هذا الرأي صحيح؟ يبدو أنه لا يمكن إلا اعتماده حينما طالعنا المؤلف الآسر للانتباه الذي نشره السيد دافيد ماكدونالد (D. Macdonald)[4] مؤخرا بخصوص بلاد التبت[5].

هناك بالفعل، فوق «سقف العالم» على علو 4.000 و4.500م، تسير الحياة على غرار ما يجري في ممراتنا المغربية المرتفعة إلى 2.000 و2.400م فوق مستوى سطح البحر. بالطرق مسالك ضيقة متمسكة بمنحدرات الجبال على طول مسار السيول، ومرتادة من طرف دواب الحمل التي تصر دائما على السير في أقصى جناح الطريق، بالقرب من حافات تنحدر إلى مائة أو مئات عديدة من الأمتار عمقا.

---

(1) التبت: منطقة هضبة تقع شمال الهملايا بأسيا، وسميت أحيانا «سقف العالم»، لارتفاعها إلى مستوى نحو 4.900م علوا عن سطح البحر. وتوجد بين الصين التي تحيط بها شمالا وشرقا، وميانمار والهند والنيبال جنوبا، وباكستان غربا.

(2) أوفيرن: ناحية تاريخية بفرنسا في قلب النطاق الأوسط. ويعود مركزها إلى القرن 11م، ويشمل المدينة التي كونت فيما سبق دوقية كليمون، وعرفت ازدهارا روحيا وفنيا شهدت معه تشييد نحو 250 بناية دينية مثلت تراثا ثقافيا متميزا حافظت فيه على طرازها القوطي.

(3) نهر الراين: نهر أوربي بجري عبر أراضي سويسرا وفرنسا وألمانيا وليختنشتاين وهولندا، وهو أحد أهم وأطول أنهار القارة.

(4) دافيد ماكدونالد (1870 أو 1873-1962): وكيل تجاري إنجليزي بالتبت هلال الربع الأول من القرن 20، وبفضل إتقانه للغة التبتية إلى جانب لغته الأم كان من بين الرواد البريطانيين الأوائل معرفة بالشؤون التبتية. وسمح له مقامه بالبلد من تعميق مداركه بحياتها ومجتمعها وثقافتها، وبنقل مداركه إلى الأوربيين من خلال كتاباته في هذا الشأن.

(5) (David Macdonald, **Mœurs et coutumes des Thibétains**, traduction Billot, 1939) (المؤلفان)

هذه الطرق شديدة العراقة، ولا تبدو شبيهة أبدا بطرق البلدان الغربية، متخللة لمحطات قافلية، وبمقرات متينة وهائلة للأعيان، أو مهجورة أغلقت تصدعاتها بالصلصال، والتي يقضي فيها سكان التبت الفقراء حياة تكون في الخارج منذورة للبؤس والانزعاج.

في هاته المواقع التي كانت شخصيات اللاما[1] قد أظهرت فيها في ما مضى تبصرا رائعا لاكتشاف العظمة والحياة النابضة، شيدوا بها الأديرة بالحجر قليل التشذيب، والمطلية بالوحل أو بالتراب المدوك، والمرتكزة أحيانا فوق ذروة الصخور المنيعة تقريبا، ومتشبثة أحيانا أخرى بالانحدارات المفاجئة للأجراف، ومتكدسة في ثالثة في الأودية المحمية.

في الفناءات الفسيحة لتلك الأديرة خلال بعض المناسبات المقدسة تقام رقصات اللاما التي يعشقها شعب التبت، والتي لبعضها، مثل رقصة القبعة السوداء (chapeau noir)، شهرة عظيمة. في هذه الاحتفالات، يستمد البسطاء شجاعة جديدة، ويقوم العمال بتعبئة السطوح المنبسطة التي يخلطونها بالتراب والأغصان والقش وهم يمارسون ما يشبه رقصة الجيكَ الثنائية (gigue)[2]، ويطلون بالجير جدران التراب المدكوك أو يزينونها بحواش سمراء وأشرطة عمودية حمراء. والمزارعون من أجل استعمال محراث خشبي بدائي لتقليب حقولهم الصغيرة المحاطة بسويرات، أو استصلاح قنوات السقي بمجرد انقضاء موسم الشتاء؛ كلهم من أجل تسليم « قادة القلعة » مبلغ الجبايات والأموال التي، لسبب أو لآخر، يسلبونهم إياها إلى آخر سنتيم.

إن فساد زعماء المنطقة لا يعادل إلا فساد اللاما والسلطة، وهو في الحصون مثلما في القصور مطلق واستبدادي وطاغ... هل هذا مخالف لما في الأطلس؟ سنرى فيما بعد، وسندرك بالتالي أن التقارب بين التبت والجبال الأمازيغية يمكن أن يفرض نفسه على ذهنية الرحالة الذي قام بزيارة البلدين.

---

(1) اللاما: مرتبة دينية في التبت، تعني معلم دراما في البوذية التبتية؛ واستخدم المصطلح تاريخيا لوصف القادة الروحيين المبجلين ورؤساء الأديرة.

(2) رقصة الجيك: رقصة سريعة الإيقاع إنجليزية أو إيرلندية الأصل.

لا يستتبع ذلك الاستخلاص من أوجه الشبه تلك خلاصات تاريخية أو أركيولوجية أو اجتماعية مناسبة لتداخل بين أسيا والمغرب، فتلك الأوجه ستتجاوز البوادر العامة التي وجب التركيز عليها في مثل هذا الأمر، أي أن الوسط يؤثر في طريقة عيش الأقوام وليس في حاجة بالضرورة للبحث بعيدا عن التفسيرات البسيطة الأقرب للحالة. وبهذا الاحتراز نعتقد أن تطابق هذه الصفات بين بلدين للحضارة العتيقة هام لملاحظة وتبرير ذلك التقارب غير المتوقع ربما، والممتع بين أعالي الأطلس المغربي والهضبة الفسيحة للتبت.

الفصل الثاني

الأطلس الرائع

إن الهيئة الجغرافية للمغرب وهيئة المبادرة والسياحة لمراكش، والرسامون، الذين وجب ذكر ماجوريل من بينهم، قد عملوا بجد للتعريف بالصورة بمشاهد وقصبات الأطلس الكبير؛ وبفضل جهودهم بدأت ملامحها تعرف التعميم، وشهرتها تنتشر بسرعة. ذلك أن الكوداك[1] والريشة قد لعبا، في الحقيقة، دورا أكثر فعالية من الكتب، ولنلاحظ في الوقت أنه لا توجد دراسة شمولية عن القصبات كفيلة بتوجيه السياح. إن هذا ما سيغفر لمحاولتنا، فقد بحثنا في كيفية ملء تلك الزاوية من خلال نشر بعض المعطيات المختصرة دون أي ادعاء إلا الرغبة في أن تكون سهلة القراءة[2].

لقد تأثر كافة السياح بتنوع الأطلس الكبير وعظمة مناظره الطبيعية. فإن كانوا في أوريكة[3] يحسون بشعور العزلة؛ ويشعرون في الأودية الضيقة والمتراكمة لقبائل

(1) إستمان كوداك (*Eastman Kodak*)، واختصارا كوداك، نسبة إلى شركة أمريكية تنتج مواد وأدوات التصوير، واشتهرت بإنتاج الأفلام الفوتوغرافية.

(2) إلى الأشخاص الراغبين في التوثيق بشكل دقيق جدا عن الأطلس وسكانه وتنظيماته الاجتماعية، ننصح بقراءة المؤلفين الأساسيين الآتيين:

Laoust, **Mots et choses Berbères**, 1920; R. Montagne, **Les Berbères et le Maghzen**, 1930 et **Villages et Kasba berbères**, 1930 (المؤلفان).

(3) وادي أوريكة: وادي ينحدر من الأطلس الكبير، ويقع على بعد 30 كلم من مدينة مراكش، متميزا بمنظره الطبيعي وشلالاته خصوصا في موقع ستي فاطمة، وبحياة سكانه الجبلية المصمودية التقليدية، والملامح المعمارية الأصيلة لبعض قراه. انظر أحمد هوزلي، مادة أوريكة، **معلمة المغرب**، ج 3، ص 893-895.

كَلاوة[1] ووزكَيتة[2] وغيرها من الأماكن بالوطأة الضاغطة؛ وفي الممرات الجبلية، كخوانق حقيقية ترسم فيها الجدران المتصلة وركام الصخور المتساقطة قبابا هائلة ذات أقواس حجرية بدائية؛ وفي بعض النواحي التي تتخذ فيها الجبال أمام أنظارهم مظهرا وحشيا أو داع إلى الرثاء بقممها المشعرة بأشجار التويا المنتصبة على شاكلة المشانق.

وفي بعض المسالك التي تبدو على حدود الهاوية جهنمية وجديرة باجتذاب قلم غوستاف دوري (Gustave Doré)[3]، فيما تشوش السحب والضباب فوق القمم المكللة بالثلوج في الشتاء والربيع؛ وفي المقابل تبرز المناظر الهادئة في بلاد كَندافة[4] التي تحاط فيها القرى بأشجار اللوز، فيما تعرض للتجفيف بالشمس فوق السطوح الطينية المحدودة بالحجارة عناقيد الشعير الذهبية والفلفل القرمزي.

وكم تبدو تنمل[5] في بسيطها الصغير ذي الأراضي الخصيبة وأشجار الزيتون المثمرة رائعة، وكم هو لطيف في قعر الأودية التي تحتضن غابة من أشجار الجوز

---

(1) كَلاوة: إحدى القبائل الأمازيغية للأطلس الكبير بحوز مراكش من الفرع المصمودي، تحدها شرقا قبيلة غجدامة، وغربا مسفيوة، وشمالا توكانة، وجنوبا إيمغران واتحادية أيت واوزكَيت. انظر:

Voir M. Peyron, Glaoui / Glaoua, **Encyclopédie berbère**, vol. 21 (Edisud 1999), p. 3151-3160.

(2) وزكَيتة: أي : أيت واوزكَيت المجموعة القبلية المتمركزة حول جبل سيروا والسفح الجنوبي للأطلس المراكشي. انظر إبراهيم ياسين، مادة واوزكَيت، **معلمة المغرب**، ج 22، ص 7557.

(3) بول كَوستاف دوري (1832-1833): رسام فرنسي شهير برسومه التي حلا بها مؤلف سيرفانتيس «دون كيخوطي «(1863)، وملحمة ملتون «الفردوس المفقود» «(1865)، و «الكتاب المقدس» (1866). انظر:

René Delorme, **Gustave Doré, peintre, sculpteur, dessinateur et graveur**, Ludovic Baschet, Paris 1879.

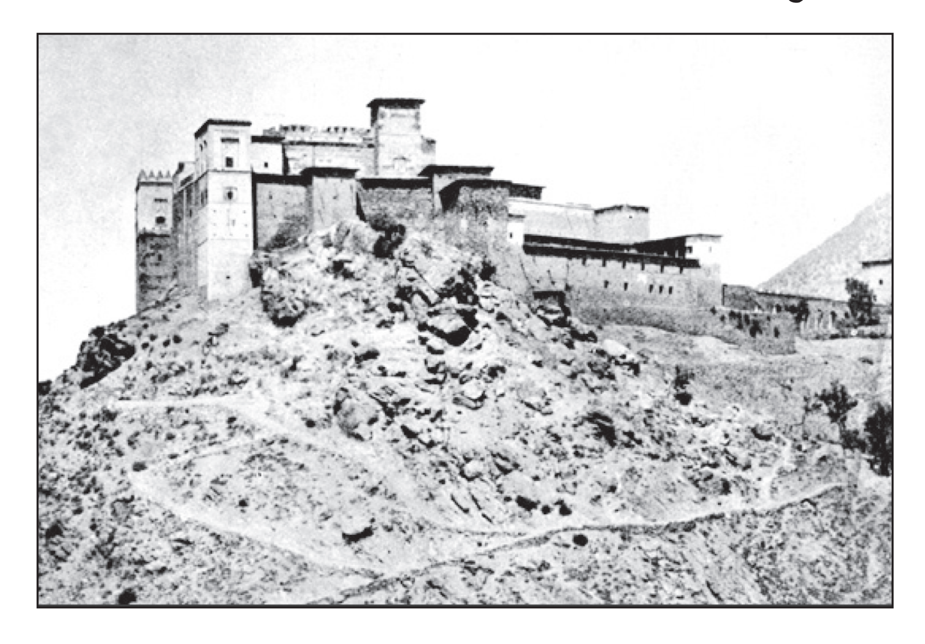
(4) كَندافة: تاكَندافت تحريفا لتاكَنتافت، قبيلة أمازيغية تنحدر أصلا من الأطلس الصغير، قبل نزوحها إلى الأطلس الكبير خلال التاريخ الحديث لتستقر على ضفاف واد نفيس بين تيزي-ن-تيشكا ومراكش، وفرضت نفوذها على الجهة الغربية لجبل توبقال، غير أنه تم التضييق عليها من طرف كَلاوة شرقا ومتوكَة غربا، وظلت محافظة على سيادتها واستقلالها حتى عهد الحسن الأول، حيث خضعت له مع احتفاظها بإدارة شؤونها ذاتيا بواسطة قواد من بين ظهرانيها. وقد خلفت عددا من القصبات أبرزها قصبة كَندافة وتالات-ن-يعقوب وأكَادير-ن-جوف. انظر علي صدقي أزايكو، مادة تاكَنتافت، **معلمة المغرب**، ج 7، ص 2157؛ وأيضا:

Samuel Pickens, Michel Renaudeau, Xavier Richer, **Le Sud marocain**, ACR Éditions, 1993, p 76.

(5) تنمل أو تينمل: قرية صغيرة وسط المجرى الجبلي لواد نفيس في محيط تالات-ن-يعقوب، وعلى بعد نحو 100 كلم جنوب-غرب مراكش، على الطريق التي تربطها بتارودانت عبر ممر تيزي-ن-تاست انظر، علي صدقي أزايكو، مادة تينمل، **معلمة المغرب**، ج 8، ص 2765-2767.

المعمرة سماع دوي فيض سرمدي. إن المشهد متسم باللذة كما يقول أحد المسافرين: «لقد قام الخريف بمنح الاصفرار لأوراق أشجار اللوز والرمان، ووحدها أشجار الزيتون ما تركت أوراقها الرمادية سليمة، وامتلأت أشجار الليمون بثمارها، وفي عمق أحد المروج نصبت نخلتان في السفح المقشر للجبل عماديهما المنعزلين».

ونصمم على أنه في الأودية المفعمة بالبساتين المزهرة التي تتسلق فيها العين المنحدرات المكدسة عميقا بمجاري المياه، وتصل إلى مدرجات من الصخر التي تتراكم فيها الثلوج، فإن الشعور بمنظر رائع يمسك بالمرء المنبهر بمعاينة طبيعة شديدة الجمال والتأثير. ومع ذلك، فإن هذا لا يمثل إلا جزء بسيطا للمتعة من البقية.



قصبة گندافة (تصوير: Gillot)

بالتأكيد أن جبال إفريقيا ليست هي جبال أوربا، فجانباها المشجران والمخططان بالعديد من التظليلات المحمرة تفضح سريعا مرونتها ووسطها الجغرافي؛ إلا أن فضول السائح لن ينقطع، لأنه سيلتمس هنا وهناك آلاف التفاصيل التي تكشف له حياة الجبليين. إن الرجل الذي يسير برأس حاسرة ومحلوقة تماما ملويا في برنسه الأسود الطويل المزخرف بغرابة بتواشيح حمراء على الظهر، والمرأة التي بحنكة ترتدي الصوف

الأسمر الذي تتدلى منه الدبابيس الفضية فوق صدرها تجذب وتأسر لب المسافر؛ وتبعا لذلك يتفاجأ بتخيل الحياة الصعبة والرتيبة لأولئك الناس لا في الإطار الموحش أو الجميل الذي يرى تطورهم فيه، ولكن أيضا في التراتبية التي ارتضوها تحت السلطة المطلقة لقادتهم؛ يلمس كما أفصح عن ذلك دوتي بجدارة ألا أحد منهم يتوق لمصير آخر غير الذي يعيشه، ولا أحد منهم يأمل في تغيير الظرف، ومع هذا فإن السكينة والرضى تبدوان على الوجوه. إنه النوع غير قابل للاختراق الذي لم نستعد أبدا لمعرفته، والذي يفضل على بعد شديد عن مفاهيمنا الغربية.

ولكن، ما الغاية من التفلسف في الأطلس؟ ألم نقدم بحثا عن أحاسيس طرية وانطباعات جديدة؟

وجب النظر دون زيادة إلى ذلك المشكال[1] الإفريقي العجيب، وبالتدقيق في معاينته سنكتشف فيه يوميا اتصالا أمتناً بلوحات أعرق على ما هو في العالم، والحركات الطفولية والمشاهد القروية أو الرعوية التي قد تبدو مشابهة في أي مكان آخر؛ فعلى سبيل المثال تقوم بعض النسوة الأمازيغيات بنقل السماد الطبيعي، وعلى الفور يأسر اللون المحلي السائح. هنا، ولذلك العمل تلتئم النسوة جماعة، عجائز كن أو يافعات، موسرات أو معوزات، فيتزينن بأزهى ملابس المناسبات، والتي غالبا ما تكون متسخة مع ذلك، ويضعن فوق رؤوسهن قفافا عظيمة من «الدوم»[2] ملأنها بسماد القرية؛ وبغنائهن ينزلن لحمله إلى كافة الحقول المجهرية التي تحد المسيل. ويشكل هذا مشهدا لطيفا يتطلب من آلة التصوير تخليده.

في مشهد آخر للحقل، حيث يظهر العمل النسوي في البلاد الأمازيغية مبهجا للمشاهدة على الدوام؛ وهنا وصف يستمد كافة جماليته - إن وضعناه في إطاره -

(1) أنبوب من المرايا يحتوى على خرز ملون، وحصى حر، وغيرها من الأشياء الملونة الصغيرة. المشاهد ينظر من احدى الأطراف ويدخل الضوء من الطرف الآخر منعكسا على المرايا، يمكن المشاهد من رؤية الاشكال بألوان وأنماط مختلفة؛ أي نمط عشوائي من الأشياء تستطيع رؤيته عبر المشكال كتماثل جميل بسبب الانعكاسات في المرايا. انظر:

Ph. Pelin, **Instruments d'optique et de précision**, Paris, 1900, p. 3-4

(2) قصار النخل (المؤلفان).

لموقع مضيق: «نحن هنا على مقربة من حقل صغير للشعير يتم حصاده، حيث النساء الإماء في صفوف طويلة ينزلن من منزل القايد، ويعبرن سرير الواد، ويتسلقن سفح الضفة المقابلة التي أقمنا خيامنا عليها، ويمررن بالقرب من خيمتنا. إنهن يتوجهن إلى الحقول التي يقطع فيها الرجال سيقان السنابل بالمناجل، ويرددون الأغاني على شرفهن: إنها أناشيد غالبا ما يصعب ضبط إيقاعاتها، ومتسمة بطابع العذوبة وحتى بالأسى. ترد عليهم النسوة بزغاريد، أي بولولات مجلجلة ومتصاعدة عادة ما يصدح بها في المناسبات دلالة على الفرح. تتجه النساء الرازحات تحت ثقل الأكواز الشقراء لتخزينها في القصبة، ولا شيء ألطف من نظرية العمال هاته التي يتكون نصف معتبر منهم من الشبان الأقوياء، والذين بحركاتهم وتصرفاتهم يتسمون بالبساطة الطبيعية للأجناس البدائية».

ليس من الضرورة تعداد الاستشهادات للسماح بمعرفة الفتنة المتواصلة التي تفرضها على السائح هاته الحياة الأمازيغية المتأصلة والتي لم تعرف إلا قليلا؛ ولكنه وكما سنتأثر قبل القيام برحلة إلى الأطلس بالتعمق في الدراسات القيمة والهامة للاوست (Laoust)[1] أو روبير مونطاني (R. Montagne)[2]، أو تلك التي تعود إلى الجغرافيين

(1) إميل لاوست (1876-1952): أكاديمي مستشرق ولساني وإثنوغرافي فرنسي متخصص في الدراسات الأمازيغية، ومؤلف للعديد من الدراسات حول اللهجات الأمازيغية لشمال إفريقيا. وبدعوة من المقيم العام ليوطي شكل انطلاقا من سنة 1913 أول أستاذ رسمي للهجات المحلية بالمدرسة العليا للغة العربية واللهجات الأمازيغية بالرباط على مدى 23 سنة، وكان واحدا من أشهر العلماء في اللسانيات المغربية، انتهاء بتعميده أستاذا شرفيا بالمدرسة المذكورة (1935) إلى حين وفاته بمدينة الرباط. انظر:

François Pouillon, **Dictionnaire des orientalistes de langue française**, éd. Karthala, Paris 2012, p 561.

(2) روبير مونطاني (1893-1954): أكاديمي مستشرق وإثنوغرافي وأنثروبولوجي فرنسي، متخصص في العالم الأمازيغي، وصاحب العديد من الدراسات حول المغرب وشمال إفريقيا. قدم إلى المغرب باستدعاء من المقيم العام ليوطي ليكون مستشارا له لا سيما فيما يتصل بالقضايا القبلية، وساهم بدور في استسلام ابن عبد الكريم الخطابي من جهة، وعين أستاذا محاضرا في معهد الدراسات العليا المغربية بالرباط (1924-1930)، وفي تلك السنة الأخيرة أنهى أطروحته في الأنثروبولوجيا السياسية البربر والمخزن في الجنوب المغربي». وإلى جانب مهامه العلمية مارس مونطاني مهاما إدارية على رأس مكاتب الشؤون الأهلية قبل أن ينتهي به المطاف على رأس مؤسسات علمية فرنسية متصلة بالدراسات العربية والإسلامية، وعلى رأسها مركز الدراسات العليا حول إفريقيا وآسيا العصريتين الذي أنشأه سنة 1936، انتهاء بتعيينه أستاذ كرسي لتاريخ التوسع الغربي بكوليج فرنسا (1948) انظر، عبد الحليم حليم، مادة مونطاني، **معلمة المغرب**، ج 22، ص 7330-7332؛ وأيضا:

F. Pouillon et Daniel Rivet, **La Sociologie musulmane de Robert Montagne**, éd. Maisonneuve & Larose, Paris 2000, p 288.

المتميزين سيليريي (Célérier)[1] وشارطون (Charton)[2]، المتيمين معا بالمغرب. إنها وسيلة طيبة للتوصل إلى فهم التأثيرات الطبيعية أو الدينية التي خضع لها البلد عميقا، والتعرف على الصلحاء المحليين المتعددين على غرار بروطانيا، والإمساك بمغزى ركام الحجارة والأشجار السحرية والعيون المقدسة... إلخ الموجودة في كل مكان.



احتفال محلي بالجبل (تصوير: Gillot)

إن اتحاد التقاليد العريقة بالعوالم الطبيعية والطقوس الفلاحية يتجلى فيها بدرجة قصوى، وهو في الحقيقة متعة للروح قدر ما هي للعين حضور نيران المناسبات الطقوسية والرقصات الليلية التي يبحث عنها اليافعون واليافعات، بل وحتى الأسر التي تسعى بتلك الوسيلة إلى إعادة لحمة وحدة اجتماعية مهشمة، أو متداعية عبر الأزمنة على الأقل[3].

(1) جان سيليريي (1887-1962): جغرافي أكاديمي فرنسي ومتخصص في العلوم الطبيعية والفيزيائية، منتسبا إلى عدد من المؤسسات العلمية بما فيها رئاسته لجمعية الجغرافية بالمغرب، وجمعية العلوم الطبيعية والفيزيائية بالمغرب، وشغل منصب مدير الدراسات بمعهد الدراسات العليا المغربية.

(2) ألبير شارطون (1893-1980): أكاديمي جغرافي فرنسي، اهتم ببلاد المغرب بالتعاون مع سيليريي لاسيما من سنة 1923 إلى سنة 1925، كانت من ثمرات ذلك مقالات في المجلة المغربية اهتمت أساسا بمجال دراسة الأودية والأنهار. انظر:

Guy Caplat, Albert Charton, **Publications de l'Institut national de recherche pédagogique**, N° 13, Année 1997, pp 203-207.

(3) سنقرأ باستحسان الدراسة القيمة:

يشكل مظهر هاته الأعياد – ويمكن تكرار ذلك – أحد أمتن الروابط في البلاد الأمازيغية، ولا يتردد باشا مراكش[1] – الذي يدرك ذلك – بواسطة أهالي قصبته تلوات[2] والقرى المجاورة في توفير المناسبة لبعض الرقصات، والتي ربما تكون أجملها الرقصة المسماة « أحواش»[3].

تنطلق هاته الرقصة ليلا؛ ففي ساحة القرية المحاطة بأشجار الجوز المعمرة توقد نار يصونها بعناية أحد الرجال بالحطب اللين الذي تجذو منه فرقعات متسلسلة من الشرارة. وعلى بعد مسافة ما تنتصب مجموعة من الذكور، وفي الجهة المقابلة النساء في صف نصف دائري في مواجهة النار. وفي الليلة الهادئة يرتفع الهلال، ويقوم بإنارة المشهد الوديع والموحش في نفس الوقت، والذي تتجلى فيه الفتيات اليافعات، ومنهن

Laoust, Noms et cérémonies des feux de joie chez les Berbères du Haut et de l'Anti-Atlas, in **Hespéris**, 1921, 1er trimeste (المؤلفان)

(1) التهامي المزواري الكَلاوي (1878-1956): أو الأكَلاوي، زعيم قبيلة كَلاوة وباشا مراكش خلفا لأخيه المدني، شكل أبرز القواد الكبار زمن الحماية، مارسا سلطانه على قسم كبير من الجنوب المغربي، وتعاظم نفوذه حتى في علاقته بالسلطان سيدي محمد بن يوسف، مستفيدا من تعاونه الوثيق مع إدارة الحماية، الأمر الذي سيجعله على رأس الحركة المناوئة للسلطان، ومنظم مؤامرة 20 غشت 1953 التي أدت إلى نفي السلطان وتنصيب ابن عرفة بديلا عنه، وواصل موقفه إلى حين بداية فرنسا تدابير اتخاذ تدابير عودة السلطان الشرعي حيث انتقل إلى فرنسا طالبا العفو من هذا الأخير قبل حلوله بالمغرب سنة 1956، ولم يلبث أن توفي بهد ذلك بأسابيع قليلة جراء المرض. انظر أحمد شوقي بينبين، مادة التهامي الأكَلاوي، **معلمة المغرب**، ج 2، ص 620-621.

(2) تلوات: وتعرف كذلك بتيلويت، وهي قرية أمازيغية على ارتفاع 1.800م تقع على طول الخط السابق للقوافل من منطقة الأطلس على جبال الأطلس إلى مراكش؛ وكانت مقرا لسلطة أسرة الكلاوي. انظر أحمد هوزلي، مادة تلوات، **معلمة المغرب**، ج 8، ص 2529-2530.

(3) يطلق لفظ «أحواش» والذي يعني الفناء، على الرقص الجماعي بجميع أشكاله بالجنوب المغربي، خاصة في مناطق الأطلسين الكبير والصغير موطن القبائل الأمازيغية المتحدثة بلهجة تاشلحيت. وهي رقصة جماعية مختلطة بين الذكور والإناث، شرط أن يكنَّ عازبات، وهو ما لا يسري على الذكور. وتتميز أحواش بتماثل حركات الراقصين والراقصات، وهي حركات يختلف شكلها وسرعة إيقاعها باختلاف المناسبة والمنطقة؛ وفي حالات نادرة ينبري رجل أو امرأة أو هما معا للانفراد بالرقص خارج حلقة المجموعة. وتقام الرقصة في مختلف المناسبات التي يحييها أبناء القرى والقبائل كالأعياد الدينية والوطنية، ولكنها تبقى بالخصوص تعبيرا عن الفرحة الجماعية التي توافق وتطبع دورة الحياة الزراعية. يرتدي المشاركون في أحواش زي الحفلات والأعياد المميز للقبيلة، فالرجال يلبسون الجلباب الوطني والقميص (تشامير) والبرنس والعمامة البيضاء، ويتقلدون الخنجر الفضي، و«أقراب» (المحفظة الجلدية المزركشة بالحرير)؛ بينما تتزين النساء بالحلي التقليدية التي تتكون عادة من القطع الفنية المسبوكة وكريات اللوبان. انظر الحسين المجاهد، مادة أحواش، **معلمة المغرب**، ج 1، ص 190-194.

حتى نحو الخمسين، مرتديات فساتين الشاش[1] الأبيض، وبشعور ملفوفة في حجاب صارخ اللون، مرددات الغناء على نقر الدفوف.

«وسط ذينيك الصفين يوجد شعراء يقومون بالارتجال، وتشرع الراقصات الملتحمات بشدة كتفا لكتف في ترديد الشهادة، ثم يرددن جماعة وفق جمل موسيقية مكررة باستمرار أبيات الشاعر؛ ويعاد ترديد وقول كل بيت من طرف الصفين حتى اللحظة التي يتم فيها بلوغ جوابه. ويتم ضبط الإيقاع بدفين اثنين، وبتصفيق الأيادي، وبالتمايل المنتظم للجسد، ووطآت الكعوب التي تدب على الأرض إيقاعيا... وشيئا فشيئا يتسارع الإيقاع، ويتعجل تصفيق الأيادي طبقا لمضمون البيت الأخير؛ وخلال بضع دقائق تنخرط الأجساد في رقصة محمومة، لكنها موزونة بإتقان، ثم فجأة وبدون علامة ما تتوقف الرقصة في صمت عميق جدا «.

في العادة، حينما تكون وفرة الخشب المعد لإنارة الحفل قد استنزفت، تتوقف الأغاني، ويتفرق الجمهور، وينسحب المغنون مثنى مثنى؛ ولكنه في بعض الأحيان لا يتوقف «أحواش»إلا فجرا، فيعود كل واحد حينذاك إلى العمل كما لم يحدث شيء.

ما الفائدة من هاته الرقصات القروية؟ هل للمرح؟

نعم، ولكن ليس ذلك فحسب؛ فتحت إشارة النار تتمكن الأسر من التصالح، وفي أعماقها الانتقامية تتجمد مشاعر الغضب والثأر لبضع ساعات لا أكثر، لأنه في اليوم الموالي ربما تنفجر الخصومات بصورة أشد بين العشائر، بحيث وحدهن النساء من يجرؤن على الخروج إلى الحقول، فيما لا يتوجه الرجال إلى المسجد إلا ببندقية على الكتف. إنه بلد غريب هذا الذي في قلب القرن العشرين احتفظ فيه بمثل تلك العادات، وكم تستحق زيارته ودراسته منذ الآن إن شئنا الإمساك بها حية وفي طابعها البدائي[2].

(1) الشاش: قماش رقيق كثير الثقوب، ينسج من القطن أو الحرير أو الخيوط الصناعية.

(2) انظر المراجع الآتية:

E. Aubin, **Le Maroc d'aujourd'hui**, 1902, p 57; E. Doutté, **En tribu**, 1914, p 49-50; R. Montagne, **Les Berbères et le Maghzen**, 1930, p 238 et R. de Segonzac, **Au cœur de l'Atlas**, 1910. (المؤلفان)

الفصل الثالث

القرى والمنازل الطينية

حينما يرتفع الممر الجبلي إلى نحو 2.500 م تعاين مشاهد الأطلس التي لا تقارن، وحينما يتم الانتهاء من حضور حفل للعروض القروية، لن يكون السائح قد استنفد بعد دورة الاستمتاع. هناك في الأعلى على سفوح الأودية، غالبا بجوار النجود المناسبة لحياة القطعان أو العكس، في الأسفل، في عمق الأحواض الخصبة، تظهر هنا وهناك تجمعات من القرى الصغيرة، تشرف على بعضها مباني شبيهة بالقلاع.

هنالك يعشش الباني الحضري الأمازيغي بقراه البسيطة جدا والريفية، وبمنازله الطينية، ونوافذه ذات فتحات الرمي، وأروقته النخروبية[1]، وسطوحه المحدودة بالحجارة المستوية، وفقره، وبؤسه، وحواجزه من الزفزوف، وحقوله الضئيلة، والمظاهر الرمادية التي تجعله يذوب في الانسجام العام للجبل، وأيام الأمطار؛ ووحده الشعير والذرة واللفت، الذي من أجل تجفيفها تتدلى في أكاليل مديدة على الجدران، فتلقي لمسة من اللون على ذلك المنظر الممل والباهت، والذي يحيله الثلج إلى بياض بندفه، غير أنه لا يبرز فيه حينذاك أية حيوية إلا في بعض الساعات.

في كل يوم بالفعل، تضطر النسوة لكنس السطوح من الثلج الذي يهدد على الدوام بردمها، وهي سخرة متواصلة تفرض ذاتها لحماية تلك السطوح، ولكنها ممتعة للرؤية؛ إنها لحظة الصرير والضوضاء. وأيضا بفرح تستقبل أيام الصحو، وتجب عند نهاية فصل الربيع معاينة هجرة السكان صوب القمم العالية التي سيعيشون فيها بالقطعان في المراعي، وللشعور بالسعادة التي يحسون بها بقضاء شهرين في حرية مطلقة بعيدا عن القياد والقصبات، بحيث لا من ملاذ لهم ليلا إلا «العزيب»[2]، الحظيرة المحصورة والمحاطة بجدار صغير من الحجر الجاف، والذي سيحميهم من هجمات الضواري.

---

(1) نسبة إلى نخروب النحل وهيئة مساكنه.

(2) العزيب: سكن ثانوي خارجي لرعاة الدشر لحماية القطعان في المراعي الخفيضة مثلما في المنتجعات العليا بالجبال. للمزيد من التفاصيل انظر أحمد زروال، مادة العزيب، **معلمة المغرب**، ج 18، ص 6069-6071.



ملاح في إحدى قرى الأطلس الكبير (تصوير: Gillot)

نرى بأن هذا المخيم العريق – ونحن لا نبتكر شيئا – أكثر لطفا من الحياة في القرية التي يفضح فيها كل شيء الظرف البئيس لسكانها الفقراء، بدء بالمنزل الذي ظل على الدوام كئيبا رغم تنوع التصميم أو البنيان أو التهيئة التي تمكن مصادفتها لدى هذه القبيلة أو تلك. إن هاته الطوابق الأرضية المستغلة حظائر وفناءات داخلية، وتلك الأبواب الضخمة المزدانة بالمسامير الحديدية، والسطوح المفعمة بالأحراش والطين والمدعمة بنجارة رديئة، وجدران الطابية المشيدة في هيئة مهارز داخل تثبيت خشبي، وتلك الأعمدة والتيجان الخشبية التي تقدم تشكيلا معماريا داخليا يدفع شكله الغريب إلى الإحالة في بعض الأحيان على الفن الزنجي، كلها تبرز فكرة ضحلة عن التعمير في الجبل؛ ووحدها بعض ديار الشيوخ الأبعد والبارزة بلونها الأحمر ما تبزغ وسط المجمع غير الملون لتلك المنازل البسيطة التي يبدو وكأنها اغتسلت بالطين. يا له من وجود يضطر أولئك البؤساء معايشته بها ما لم يجدوا في قدريتهم أشكالا لا تنضب من الصبر والإذعان.

بالجزائر، قرى القبايل[1] بأسقفها القرميدية هي أكثر تعديلا؛ وهي من جهة ثانية وعلى الدوام أفضل موقعا من القرى الأمازيغية، إذ يلاحظ بالفعل أنه على عكس أسلوب تجمعات القبايل أو بجرجرة، لا تحتل قرى الأطلس مواقع حصينة طبيعيا فوق القمم الصخرية إلا استثناء، وتتدرج في العادة في شكل طبقات على منحدرات الأودية. ويفسر الأمر جليا بأنه في هذا البلد الذي تتعاظم فيه صعوبات المداخل لم يكن يخشى من هجمات الأغراب إلا نادرا؛ وهذا حقيقي، لأن أكبر التهديدات تنبع من الصراعات الداخلية. كما أن «تعريض المنازل للشمس، ومجاورتها للمزروعات، والحاجة إلى ملاذات القطعان، وإلى المحافظة على الزروع، واستخدام ساحات الدرس هي بالنسبة لتأسيس النجوع شروط أكثر أهمية من هاجس الأمن. ووحدهم الشيوخ – من أجل مجابهة رعاياهم في الغالب أكثر من أعدائهم – من يحفل بتشييد الأحزمة والأبراج العالية».

بطبيعة الحال، لا تطرح مسألة الأمن في كل مكان بنفس الطريقة، إذ في المناطق يسيرة الولوج وجب على التجمعات اليقظة فيها زيادة، وهو ما جعل منها ما نراها تظهره أحيانا من مظهر لقلاع صغيرة حقيقية سميكة الجدران وذات كوات ضيقة، وأحيانا أخرى من مظهر تحصين طبيعي بالتكاثف حول المخازن الجماعية المسماة « أگادير»[2] أو «تيغرمت»[3]، وفي أخرى ببساطة أكبر بمكونات نظام حماية بواسطة محيط من حواجز الأشواك وببناء أبراج للمراقبة.

---

(1) القبايل: مجموعة إثنية تستوطن المنطقة الجبلية الواقعة شمال الجزائر على بعد مائة ميل شرق الجزائر العاصمة، وتغطي ولايات بجاية وتيزي أوزو وبومرداس وبرج بوعريريج وجيجل وسطيف والمدية وسكيكدة. ويمثل سكانها أكبر عدد من الناطقين بالأمازيغية.

(2) أگادير: وجمعها إگودار، لفظ أمازيغي يعني الحصن المنيع كما يعني المخزن الجماعي للممتلكات أو الحبوب. للمزيد من التفصيل انظر علي صدقي أزايكو، مادة أگادير، **معلمة المغرب**، ج 2، ص 585-586.

(3) تيغرمت: ويقصد بمؤنثه المنزل الكبير ذو الغرف المتعددة والحصين بالأبراج في زواياه؛ فيما يطلق مذكره إغرم، على القرية الحصينة (القصر). للمزيد من التفصيل انظر عبد العزيز توري، مادة إغرم، **معلمة المغرب**، ج 2، ص 534.

فضلا عن ذلك يوجد مظهر آخر، ذاك الذي نجده في قرى قمم سيروا[1] والأطلس الصغير المتجمعة بنحو مائة إلى مائتي كانون لائذة بالمخازن المحصنة العظيمة الواقعة على علو 2.000م. لم يعد الناس في الحقيقة يقيمون بها بصورة مسترسلة؛ إنها القرى الشتوية التي يقضون فيها فترة رداءة الطقس، وبعد ذلك يتفرقون في جماعات أسرية وسط المراعي العلوية، ويزرعون هنا وهناك حقول القمح والشعير البئيسة المتصلة بحواجز من الحجارة الجافة يستغلونها ديارا. إنه الترحال على غرار بعض جبال أوربا.

كان شارل دو فوكو، ومن بعده كيدنفيلدت (Quedenfelt)[2]، أول من أخبرا بوجود «تيغرمت» تلك، المباني الثقيلة والعريضة المستغلة سلفا بشدة زمن «السيبة»[3]. وها كيف تتكون حسب الطراز الأكثر عتاقة، والذي لا يزال يعاد تكراره راهنا.

يشتمل الجزء الأساسي من قبو حجري يمثل القسم الدفاعي للمنزل، والجدران مشيدة بالحجر التربيعي أكثر من الحجر المرصوف في طبقات أفقية غير متساوية، والعارضات مدمجة في تلك الجدران من أجل تدعيم البناء الهش للحجارة الجافة، وتنفتح النوافذ النادرة ذات الزخرفة البسيطة على الخارج. وإلى ذلك القبو تستند هياكل المباني المتجمعة بعضها إلى بعض بأروقة، وتحتضن فناءات يحيط بها جدار تماما حتى يتيح للأفراد والقطعان الاحتماء في حالة الخطر. وجدران تلك البنايات هي تارة

---

(1) جبل سيروا : جبل يربط بين الأطلسين الكبير والصغير، وهو عبارة عن جيوب بركانية على ارتفاع واسع من حيث ظهور الحمم البركانية السوداء. وسيروا هي صهارة بركان طبقي خلال العصر الميوسيني. للمزيد من الاطلاع انظر، إدريس الفاسي، مادة السيروا، **معلمة المغرب**، ج 15، ص 5218-5222؛ وأيضا:

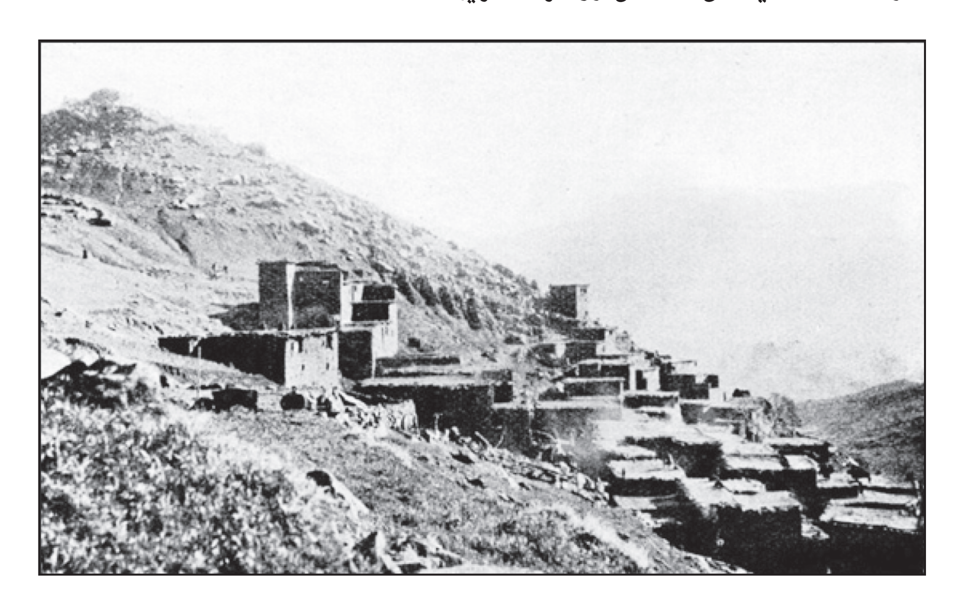
Hassan Admou et Abderrahmane Soulaimani, Massif du Siroua, Notes et Mém. **Serv. Géol. Maroc**, n° 563, 2011, pp. 83-104

(2) ماكس جون كيدنفيلدت (Max Jun Quedenfeldt) (1851-1891): ضابط عسكري ألماني نجل الجنرال فريديريك أوطو غوستاف كيدنفيلدت، عمل في اقوات الروسية زمن بيسمارك، وقام بجولات متعددة في شمال إفريقيا عموما، وخص المغرب بعدة رحلات (1880، و1883 و1886-1885)، وكانت من نتائج ذلك اكتشافه وجمعه لمجموعة هائلة من الحشرات المغربية، الأمر الذي شجعه على استكمال دراسته برحلات إلى الجزائر (1884)، وجزر الخالدات (1887)، وتونس وطرابلس (1889-1888).

(3) الحروب (المؤلفان)؛ والمقصود بها تمرد القبائل أثناء ضعف السلطة المركزية (المخزن) ولا سيما بعد عهد السلطان الحسن الأول في الربع الأخير من القرن 19م. للمزيد من التفاصيل انظر أحمد التوفيق، مادة السيبة، **معلمة المغرب**، ج 15، ص 5206-5207.

من التراب المدكوك، وتارة من مزيج من التراب المدكوك والحجارة تستغل لتدعيم المخازن وممرات السطوح، وتعلوها على العموم شرافات تنتهي بحصون وأبراج في هيئة هريمات.

يوجد باب المدخل الوحيد في الموقع الأكثر نأيا عن القبو، ويقود درج ببسطات معدة من العوارض والأغصان المغطاة بالطين إلى رواق مشرع على فناء داخلي، وإلى حجرة الضيافة المزدانة أحيانا بزخرفة جميلة؛ وبما أن تلك الأشكال الزخرفية التقليدية قد عرفت تجديدات بسذاجة بعض الفنانين، والذين كان أشهرهم «المعلم» محمد، والذي بتطبيق مواهبه من «تيغرمت» إلى أخرى عند أيت مكَون[1]، فإنها قد منحت لمنازل تلك الناحية من الأطلس روعتها الشهيرة.



قرية أنفيجين الأمازيغية، وبناية تيغرمت بمعزل عنها (تصوير: Gillot)

(1) قلعة مكَونة: بلدة صغيرة تقع على الضفة اليمنى لأسيف امكَون أحد روافد واد دادس، على بعد 250 كلم جنوب مراكش، بين السفح الجنوبي للأطلس الكبير الأوسط والسفح الشمالي لجبال صاغرو، على الطريق الرابطة بين ورزازات والرشيدية؛ وقد سميت باسمها نسبة إلى قبيلة مكَونة. انظر محمد أيت حمزة، مادة قلعة مكَونة، **معلمة المغرب**، ج 20، ص 6676-6677.

نضيف أن مخزن الشعير أو الفواكه الجافة الثمينة بالنسبة للقرية، يوجد في الحجرة العليا للقبو، والتي يذود عنها الأمازيغ بشدة إن تعرضت «تيغرمت» للاقتحام عنوة من طرف الخصم؛ وفي مناطقنا التي تم إخضاعها[1] لم تعد اليوم الخشية من ذاك الاحتمال قائمة، ولن تعود «تيغرمت» عن قريب بذلك إلا بناية عتيقة متروكة لمصيرها.

وبالفعل، إن كانت تلك الـ «إكَودار » ذات التسمية البونيقية، وتلك الـ «تيغرمت» ذات التسمية الأمازيغية فيما مضى مؤسسات اقتصادية على جانب كبير من الأهمية بالجبل، فإنها في الوقت الراهن تنحو للتمركز بسيرورة حيث لا يزال يوجد منها عدد كبير بما فيه الكفاية، محروسة دائما بأبراج الجانب لحمايتها، لأنه في فترة الحرب تتوجه الأسر لتتخذ منها ملاذا؛ وبالعكس، في المناطق الأخرى من الأطلس تتم معاينة تدهور تلك المخازن المحصنة مذ أن دمر السلاطين عددا غير محدود منها سواء لمعاقبة القبائل، أو لإضعافها. ويندرج حقا في السلوكات المخزنية، مثلما هو الحال في العادات الأمازيغية، الامتناع عن إعادة بناء ما تم تخريبه. وبطبيعة الحال، ومع الأمن الذي تم إقراره من طرف فرنسا في الجبل، يحتفظ كل فرد بأقواته داخل منزله، ويمكن القول – دون خشية السقوط في الخطإ – بأن استغلال «تيغرمت» سيندثر خلال بضع سنوات.

تعطي رؤية تلك البنايات الخربة المهجورة للمسافرين أحيانا انطباع بلد يدعو للرثاء، و«إمبراطورية تتهاوى » بحسب تعبير دوتي. وقد كان هذا حقيقيا منذ بضع سنوات، وينطبق خصوصا على السهل الذي انتشرت فيه أطلال ديار القواد المعزولين، أو ضحايا التنافس. واليوم، لهاته الـ «إكَودار» والـ «تيغرمت» المخربة دلالات أخرى؛ فإن كانت تردد واحدة تلو الأخرى معاناة الجمهوريات[2] الأمازيغية واختفاء انعزالية التجمعات الجبلية، فإنها تدل بعكس ذلك على تطور وتوطيد نفوذ السلطان بالأطلس،

---

(1) قدرنا أن استعمال لفظة «التهدئة» المتداول في الكتابات التاريخية ترجمة لكلمة (*pacification*) التي غلف بها الاحتلال الفرنسي عملياته العسكرية مخادع لمجريات الأمور، ولذلك جازفنا باعتماد لفظة «إخضاع» باعتبارها الأنسب لوصف عمليات إخماد المقاومة. حول مصطلح التهدئة، انظر عبد القادر بوراس، مادة التهدئة، **معلمة المغرب**، ج 8، ص 2608-2606.

(2) يقصد بذلك نظام «الجماعة» الذي يتيح لكافة الأفراد المشاركة في اتخاذ القرارات المتصلة بالقبيلة. للمزيد من الاطلاع، انظر المختار الأكحل، مادة القبيلة، **معلمة المغرب**، ج 19، ص 6605-6606.

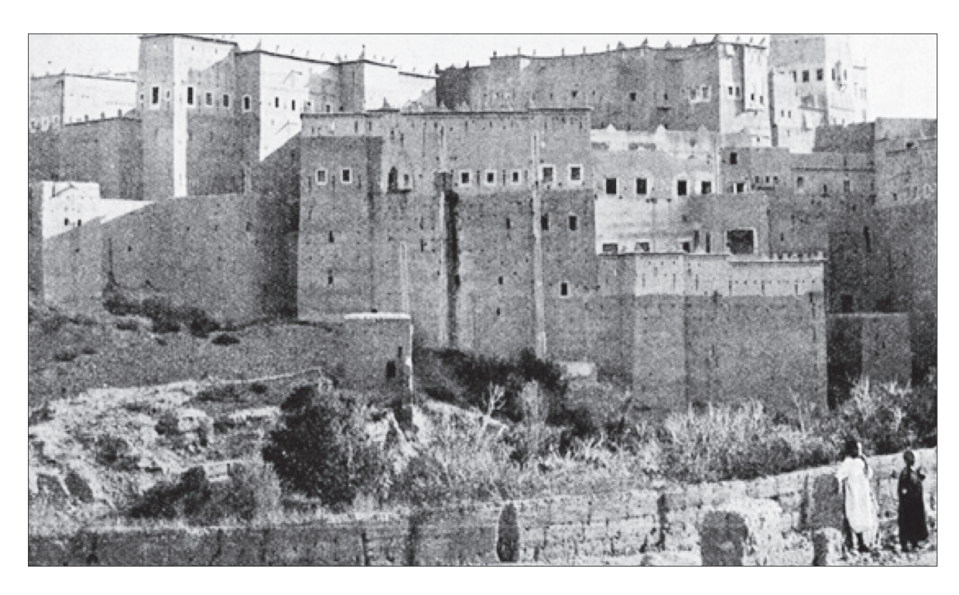
وهذا بالتأكيد أفضل. وبدل المخازن الجماعية لقبائل حلت محلها الديار الجديدة للشيوخ، إذ انبعثت القصبات من التربة، ويجعلنا مظهرها نعتقد الآن بوجود قوة تنظيمية فيودالية؛ ففي كل مكان أقرت فيه سيادة قواد المخزن سريعا كما لو أنها شاءت ترسيخ غزوها الهش.

إنه فجر الأزمنة الحديثة الذي لا نستطيع حياله القيام بأي شيء، ولكنه بالنسبة للسائح وقت الانتفاع من هذه الفترة الأولية لتنظيم مختلف، ولاضطراب العادات التي يرغب في إقامة اتصال بحضارة إفريقية عريقة. وفي غضون عشرين عاما – ويخشى من ذلك – سيختفي السحر، أو على الأقل لن يتم الشعور به بنفس الإحساس، لأنه من وجهة النظر السياحية ليست كافة أوجه التقدم محبذة، ومن المؤكد أنه باختفاء تلك القلاع الصغيرة للأطلس ستفقد طابعها.

واليوم أيضا، فإن المآل وعنف الصراعات الداخلية أو تنافس الأطراف تتسم بالشدة، ولربما تندلع حتى بسبب هاته الديار الحصينة، وتلك الأبراج الدفاعية والرقيبة. وتقود هذه الفرضية إلى التفكير بتلك المدن الإيطالية الصغيرة، مثل سان جيمينيانو (San Giminiano)[1] التي لم يقتصر فيها على التحصن ضد العدو الخارجي، وإنما أيضا ضد مواطنيهم الأصليين. ومن دون شك سيكون الأمر كذلك في بعض مناطق البحر الأبيض المتوسط التي تتوغل فيها الحضارة كذلك ببطء!

---

(1) سان جيمنيانو (*San Gimignano*) قرية تقع في مقاطعة سيينا بإقليم توسكانيا وسط إيطاليا، وهي شهيرة بأبراجها العالية التي تعود إلى القرون الوسطى، والتي تقع على تلة مرتفعة بنحو 350م عن سطح البحر.



قصبة ورزازات (تصوير: Gillot)

ولكن ما الذي يحتفظ به الغد عندما ينتقل الأطلس من نظام العشيرة والقبيلة إلى نظام الدولة المركزية؟

من وجهة النظر السياسية قد تكون النتائج طيبة إن تمكنت الحكومة الفرنسية تماما، كما يجب أن يكون مأمولا، في حصر سلطات القواد، والتقليص من العسف الذي يذيقونه لمرؤوسيهم.

في مسألة السياحة، وفي كل الأحوال، وجب اتخاذ بعض الاحترازات للمحافظة على تلك المواقع، وبناء المآثر إن كانت الرغبة في ممارسة الأطلس على الدوام جاذبيته الفاتنة على السياح، لأنه لا يجب نسيان كون الأمازيغي يتبنى بيسر، بل وبشدة، كل ما يأتيه من الخارج؛ وآجلا أو عاجلا[1]، سيتعرض المعمار المحلي وفنونه الزخرفية لتعديل عميق[2].

(1) سنجد نموذجا صارخا لذلك في المنزل القروي لباشا مراكش بأيت أورير، بطراز أوربي رديء. (المؤلفان) .

(2) المراجع:

D'A. Paris, **Documents d'architecture berbère**, 1935, pp 9 et 43; R. Montagne, **Les Berbères et le Maghzen**, pp 39, 40 et 203; E. Doutté, **Marrakech**, 1905, p 50; A. Bernard, **Les confins algéro-marocains**, 1911, p 98; J. Célérier, Le Maroc, 1931, p 67-69; L. Neitner, Notes sur le Haut-Atlas, **Revue de Géographie Marocaine**, 1930, p 117 et suiv.

الفصل الرابع

قصبات الأطلس الكبير

من الواضح أن القصبات هي أجمل ما يوجد بالأطلس، وسبق لآخرين الإفصاح عن ذلك؛ وقدر ما أبقت القصبات على هيئاتها الراهنة لن يتم التوقف عن إطراء جلال معمارها القروسطوي الذي يفرض ذاته في غرابة المشهد بآلاف الافتراضات الدرامية مثلما الغامضة، بل لن ينسى أبدا طابع المتانة والقوة المنبعث من تلك القلاع المشيدة بالتراب المدكوك ذي اللون البني أو الأحمر أو الرمادي، وحتى الأخضر أحيانا بحسب لون الصلصال أو الحث الذي صنعت منه.

وكأوكار للنسور الفخورة بنفسها، والمكامن الخطيرة فوق الأعالي أو النتوءات الصخرية على شفير المنحدرات أو منافذ الأودية في السهل، للقصبات جمال رائع يتناغم بطريقة فضلى مع الجبال الشُّمِّ التي تنافح عن مداخلها، ويظل المشهد محفورا إلى الأبد في الذهن؛ إنها حقيقة إحدى مفاتن الجنوب المغربي.

لقد تم الاستفسار إن كانت تلك الكتل التي فرضت ذاتها شديدة العراقة؛ فتحت مظهرها الراهن وجب أن تكون الإجابة بالنفي، إذ ما نراه اليوم هو نتاج تطور في بناء القصور المغربية الحصينة، والتي لا نعرف أصولها في الواقع.

يرجع البعض إلى أحد شعوب العالم القديم، الجيتوليين[1]، الأطلال المشيدة فوق تلال توجد في واحات الصحراء، والتي تدعى «تاوريرت»[2]؛ ويعود البعض الآخر إلى أبعد

(1) الجيتوليون، أو الكَيتول: تجمعات قبلية صحراوية في التاريخ القديم شغلت نطاقا واسعا من الشمال الإفريقي يمتد من المحيط إلى خليج سرت إلى الجنوب من معاقل الليبيين سكان السواحل؛ وهم من ناصروا يوغرطة بنوميديا في حروبه ضد الرومان. للمزيد من التفصيل انظر محمد مجدوب، مادة الجيتوليون، **معلمة المغرب**، ج 10، ص 3206-3210.

(2) تاوريرت: كلمة ذات أصل أمازيغي، وتعني «التل أو الكدية»، وتنطق « اورارث»، وتم تخفيف اللفظ باعتماد التاء بدل الثاء الأصلية.

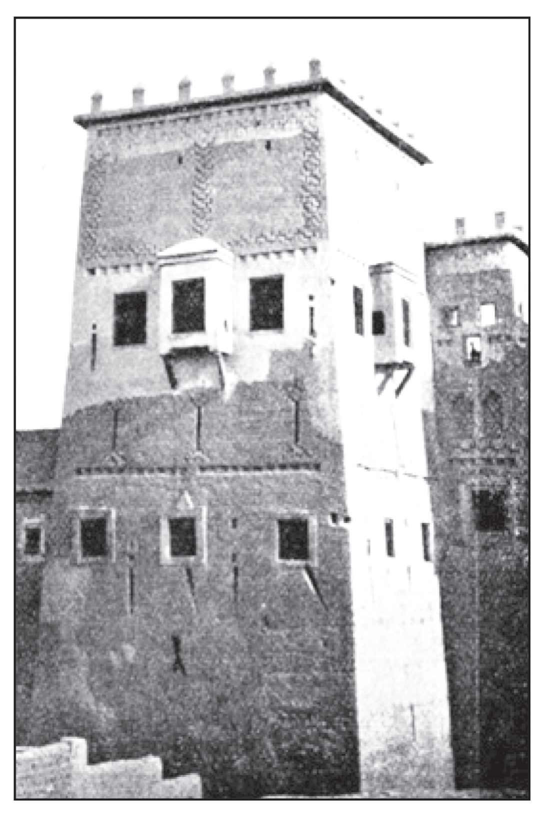
من ذلك بالـ «إكَودار»، ويزعم دوتي بأن الأقوام القديمة كان من عادتها الاحتماء داخل أحزمة أقيمت فوق القمم، وفي أعقاب ذلك انتفت تلك الملاذات – والتسمية التي أعطى كَزيل (Gsell)[1] أصلها البونيقي –، وظلت قائمة بشكل استثنائي في الأطلس للدلالة على القصبات.

ومن المرجح أن تلك الأحزمة أو الملاذات قد حلت بدورها محل المغارات المحفورة في الأجراف التي كان يستغلها سكان الكهوف، ثم تعددت في الزمن الذي استحوذ فيه الأمازيغ على الأرض، واضطروا إلى الدفاع عن ممتلكاتهم ضد عيث الرحل. ويتحدث ليون الإفريقي في مطلع القرن 16 عن تلك الملاجئ وتلك الحصون (castelli) كأماكن للحراسة واللجوء المنتشرة في جنوب الأطلس، والمحاطة بأسوار من الحجر الجاف، ومن المحتمل بأن تطورها قد حدث بين القرنين 12 و14.

بالإمكان أن نتخيل بسهولة تطور تلك الأحزمة المحصنة، وليست هناك أهمية كبرى في البحث هنا عن تحديد فترة ذلك التطور، وسيتم الاكتفاء هنا أيضا بالتطرق – مع ر. مونطاني – إلى أنه من بين الظروف الاجتماعية المضافة إلى شروط الحياة الأمازيغية في عصر الموحدين خلال القرن 12 ينبعث واقع كون «سكان الجبال الخشنين الذين عاشوا سلفا في المرتفعات الخفيضة المكللة بالأعشاب الجافة حصلوا على معاقل بالأندلس، وساهموا في إدارة المناطق المفتوحة بكافة مظاهر الشرف والمزايا المتصلة بذلك. وفيما كانت تنمل تزدان بمسجد رائع، شهدت أعالي الأودية من دون شك، وبفضل الأموال التي تم جمعها في الخارج، تشييد العديد من الإقامات المريحة لأولئك الذين أضحوا أشياخا للموحدين».

(1) ستيفان كَزيل (1864-1932): أكاديمي وعالم آثار فرنسي متخصص في إفريقيا الرومانية، وخصوصا في الجزائر التي كان يدرس بها، قائما بعدة تنقيبات مهمة أهلته ليعين محاضرا بكوليج دو فرانس (1912) ثم مفتشا عاما للمتاحف الأثرية بالجزائر (1919)، وعضوا بأكاديمية النقوش والفنون الجميلة (1923). ويعتبر أهم إنجاز علمي له هو إصداره موسوعة التاريخ القديم لشمال إفريقيا في ثمان مجلدات (1913-1929). انظر:

Etienne Michon, Eloge funèbre de M. Stéphane Gsell, membre de l'Académie, Comptes rendus des séances de **l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres**, 76ème Année, n° 1, 1932, p 7-13 et Jean-Pierre Thiollet, Stéphane Gsell, in **Je m'appelle Byblos**, H & D, 2005, p 253.



قلعة تاوريرت بورزازات مشرفة على مقرن واد دادس وواد درعة (تصوير: de Mazières)

غير أنه من المرجح أن تكون القصبات الأولى بدائية، فبما أن الأمازيغي بالتأكيد لم يستنسخ الفن الأندلسي، أدرجت تعديلات هامة ومناسبة خلال القرن 14، الفترة التي شقت فيها طرق القوافل صوب السودان، وأقرت فيه العلاقات المتواصلة بين صحراويي الجنوب والسودانيين، العصر الذي يمكن اعتباره فترة الازدهار العظيم للواحات، والتأثير الصحراوي والسوداني مرئي جدا في بعض تفاصيل معمار القصبات أكثر من أي تأثير آخر؛ وعلاوة على ذلك يكتفى باحتلال تمبوكتو وبورنو من طرف المنصور لتفسير ذلك التأثير[1].

(1) كشف الأستاذ گوتيي (*Gautier*) بجلاء، في استعمال السطح المضاد المشار إليه في بلد ثلجي، عن تقليد في الجنوب والشرق المغربيين. انظر:

Les siècles obscurs du Moghreb, 1927, p 236.(المؤلفان)

لقد تواصل الخليط في أعقاب الحملات الشريفة بالأطلس، ويخبرنا التاريخ بأن السلاطين بحثوا دوما في أن تكون لهم في حدود إمبراطوريتهم مراكز وقلاع موجهة لحماية المغرب الغربي من أعمال الغزو والنهب؛ ويزعم بعض المؤلفين أيضا، دون التعمق في تحديد ذلك، أن بالإمكان التمييز بين ثلاثة أصناف من القصبات: تلك السابقة عن العصر المريني حتى القرن 14، وتلك التي تعود إلى عهد المرينيين (القرنان 14 و15)، والقصبات الشريفة التي شيدت غالبيتها في عهد مولاي إسماعيل (القرن 18).

يمكن أن يكون هذا التصنيف دقيقا، ولا يجب مع ذلك تأسيسه على معطيات معينة، لأن دراسة القصبات المغربية لم يتم بعد تناولها في مجملها، والمؤشرات المختصرة والمجزأة التي يتم جمعها من هنا وهناك ليست بتاتا كافية لتسليط الضوء على مسألة الأصول؛ وحتى الوقائع التاريخية القديمة بذاتها هي بدورها عرضة للشك.

يؤكد المسلمون، على سبيل المثال، بأن القائد العظيم عقبة بن نافع قد طرق المغرب في القرن 7م ونزل حتى إلى السودان بعد الأطلس وسوس ودرعة، مبيدا الساكنة، ومقيما لتجارة عظيمة للعبيد. وتضع المدرسة التاريخية الحديثة موضع شك هذا المسار العجيب، وتنحو بالأحرى إلى الاعتقاد بكون الأمر يتعلق بأسطورة أكثر من الحقيقة، رغم ما يقوله المؤرخ الشهير ابن خلدون.

ومن ناحية أخرى، نحن أكثر تيقنا من حدوث حركة تفاعل سودانية-مغربية في القرن 10 م، وتحتفظ إحدى بوابات مراكش باسم مسوفة[1] التي انطلاقا من واد درعة اكتسحت عناصرها الجبل؛ ومدة بعد انتظام رحلات تجار المغرب الأقصى إلى بلاد السودان عززت الديانة تلك الأواصر، ومن السنغال اندلعت الشرارة التي أوقدت النيران: إنها حرب الجهاد آنذاك بالأطلس.

(1) مَسُّوفَة أو إمسوفا: أحد البطون البدوية الكبرى لقبائل صنهاجة، الملثمون المعروفين بالطوارق إلى جانب لمتونة وگدالة ولمطة. وكانت مسوفة قد لعبت دورا كبيرا في انتشار مجال الدولة المرابطي، وكانت متنقلة في الصحراء قريبًا من تكرور وتمبوكتو ونواحي بلاد السودان الغربي.

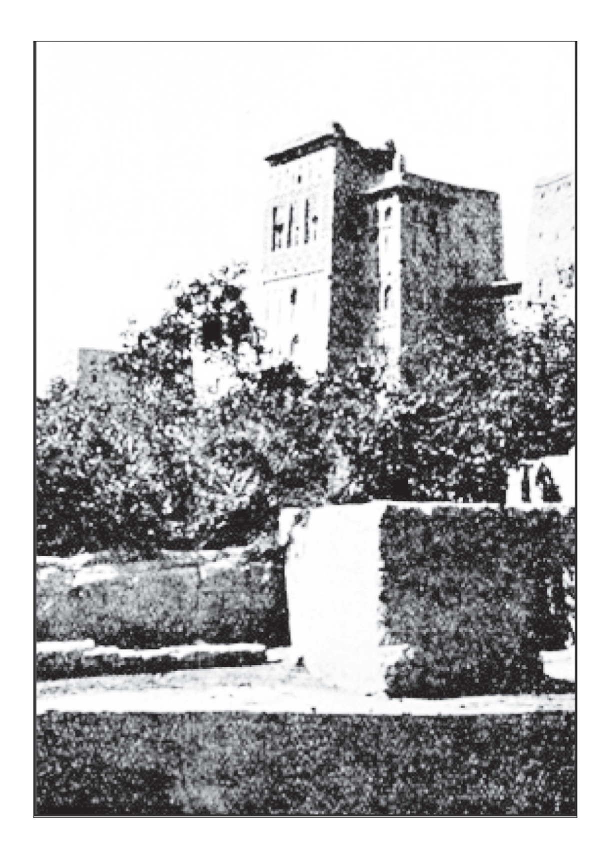
لقد أوقفتها شخصية شجاعة، اسمه يوسف بن تاشفين، وأقام بمراكش ليؤسس بها حصنا عظيما شاسعا. فأية تحصينات؟ بحواجز الأشواك أحاط البلدة الطينية العريضة التي تشرف عليها «تغرمت» المشيدة بحجارة گليز[1]، فكان ذاك الحزام الذي يحميها من الحيوانات البرية والنهاب كافيا له. وكما لم يشأ وجود أية إعاقة في وجه قواته، قوض قلاع المدن التي كان يخشاها استقبالا، واستبدلها على المسالك العابرة بالقصبات التي سيتم استغلالها للحماية من الأمازيغ. ألم يكن الأمر يستوجب منه الحيلولة دون نزول الجبال إلى السهول؟ لقد كان الاحتراز مفيدا.

في القرنين 13 و 14م أخضع السلاطين المرينيون سوس ودرعة؛ ففي الجبال حاصروا تنمل التي صمدت قلعتها سبع سنين، غير أن تلك الحروب أسفرت عن تخريب القصبات ونهبها، لأنه في أي مكان منها، وحتى بسجلماسة، اندلعت ثورات استوجبت القمع، وكانت الغنيمة عظيمة في بعض الأحيان، ويقال بأن ثروات وجدت متراكمة بكميات هائلة في تلك القصور الحصينة... إن الحياة المضطربة في المغرب خلال القرن 15، بما في ذلك الجنوب الذي كان فيه أرباب الزوايا في هيجان، قد جذبت أنظار السلاطين إلى الأطلس، وطمح كافتهم إلى الإمساك بمعابر الطرق الكبرى عبر تشييد القصبات التي أسندت لحرس مأمون.

لقد تمسك مولاي أحمد المنصور بالخصوص بصنيع بناء القصبات الذي أبانت له حملاته متفاوتة النجاح في السودان منافعها، ومع ذلك وقع حدثان هامان في تلك الفترة (القرن 16)، أولهما مجيء الطوارق إلى واد درعة في عهد ملك السنغاي أسكيا الأول، ولاحقا انتقام المنصور بكاغو. ولم يسفر اقتران الجنود المغاربة بإناث السنغاي والطوارق فقط عن انسكاب الدم الزنجي في الشرايين العربية والأمازيغية، بل سمح أيضا في أنماط البناء بإدخال بدائل ومهارات مجهولة لدى البنائين المغاربة، ومن هذه الشروط الجديدة ذاعت تفاصيل عادات جديدة، وذلك طبيعي.

---

(1) گليز: جبل يقع خارج سور مراكش من الجهة الشمالية-الغربية، ويمثل النهاية الجنوبية لمرتفعات تظهر طلائعها بعد الضفة الجنوبية لوادي تانسيفت. انظر محمد رابطة الدين، مادة گليز، **معلمة المغرب**، ج 20، ص 6813.



قصبة بو جلال على ضفاف واد دادس (تصوير: de Mazières)

أغرق تنافس السلاطين والصلحاء القرن 17 في الفوضى، فقد فرضت الأعشار، وشاع الاشتباك، وعم الذبح، وبالدخول إلى المدن تم التعاطي لكافة التجاوزات؛ كان هذا مختصراً بأمانة للمرحلة، إلى درجة أن السيد كوي (Coy)[1]، مفوض الأراضي المنخفضة بالمغرب، كتب إلى حكومته: «في كل الطرق فشت الحروب وانعدم الأمن». وهذه الوضعية غير المستقرة هي ما تفسر لم كانت أحد مشاغل العاهل المغربي العظيم، مولاي إسماعيل، الذي قام في القرن الموالي بتطهير البلاد من قطاع الطرق.

(1) بيتر مارتنز كوي (Pieter Maertensz Coy): تاجر ومبعوث هولندي إلى المغرب من لدن الولايات العامة للأراضي المنخفضة لدى السلطان مولاي زيدان سنة 1605 من أجل تيسير التجارة بالمغرب وضمان حرية الملاحة. انظر.

Henri de Castries, **Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc**, 1ère série, Pays-bas, T I, II et III.

وبما أنه لم يكن ذا قلب رهيف، كانت كل الوسائل مشروعة لديه: «إن الانتصارات والإعدامات الدموية وأعمال المصادرة والإفلاس قد دفعت المتمردين إلى اعتبار ملاجئ الجبال وحدها ما تحميهم من محلات الشريف وحاميات الأربعين قصبة التي أحاطت بمعاقلهم الأخيرة». ألم يقم مولاي إسماعيل بتشييد أربعين قصبة؟

لا نعرف هذا، ويمكن أن يكون قد تم، غير أن ما لا يدع مجالا للشك هو أنه من أجل إقرار أمن الطرقات قام بنصب العديد من القصور الحصينة حتى في سفوح الأطلس، وفي سهل سوس، وبمحطات المسارات، وعلى المسالك الكبرى، ثم أسند الحراسة إلى جيش زنجي عرمرم، العبيد، يستخلص في الوقت ذاته الجبايات، ويتمون من الأعشار المؤداة عينا، ويؤمن حماية البد.

قد يكون هذا النظام معادلا لنظام آخر، بيد أنه خلق أيضا مصاعب للسلاطين جراء العسف الناجم عنه بالضرورة؛ وفي نهاية القرن 18 كانت الوضعية على نفس الشاكلة، حيث من أجل إعادة إقرار سلطة زعيم متيقظ، يدعى محمد بن يحيى، قام في طريقه بتقويض «إكَودار» الأمازيغ، ورفع في سهل سوس قلاعا لإقامة للحاميات. إنه صنيع قابل للزوال، ومن دون غد، يدفع بطبيعة الحال إلى تخمين أي مسار عبر القرون سلكه تاريخ القصبات.

وقد تواصلت هاته الحركة في القرن 19، وكأحد المنشئين العظام ومجددي القصبات يكون السلطان مولاي سليمان، وخصوصا مولاي الحسن الذي استلزم عليه الأمر الاعتماد على الزعماء الكبار للجبال من أجل الانتصار على تمردات سوس وتازروالت، أو القضاء على الفوضى والقلاقل الداخلية التي فشت في الأطلس، وإليه وجب إسناد قصبة تيزنيت، وهو من شرع في تشجيع قواد الأطلس الكبار.

في أيامنا، عاد السلم إلى تلك الربوع الرائعة؛ وقد قدم القواد خضوعهم لفرنسا، وأصبحوا مساعدين لحركتنا العسكرية. لقد شيدوا أو وسعوا قصبات عظيمة رسخوا

بها دى الأمازيغ أبهتهم وسلطتهم. وأسماء السي عبد المالك المتوكّي[1] ببوابوض[2]، والسي الطيب الگندافي[3] بتاگندافت، والسي المدني الگلاوي[4] بتلوات، هم بالفعل مهابو الجانب

(1) عبد المالك المتوكَي (1841-1927): (فترته القايدية من 1886 إلى 1927): ينتمي إلى عائلة مخزنية قديمة بسطت نفوذها على قبائل الأطلس الكبير الغربي منذ 1850. تلقى العلوم الدينية، وسرعان ما انصرف عن العلم إلى إتقان فنون الحرب والقتال، وهو ما سيؤهله لقيادة محلة عمه الحاج عمر بن سعيد تجاه تارودانت. وبعد وفاة هذا الأخير سيتعاظم نفوذه وارتقاؤه لقيادة اتحادية متوگة، وسيستغل المتوكّي من 1897 إلى 1902، الفوضى العارمة بالبلاد ، ليمد نفوذه على حساب مجموع القبائل المجاورة للأطلس الكبير الغربي وسهل مراكش، ساعيا إلى تعزيز مكانته لدى مولاي عبد العزيز عبر مساهمة قبيلته في الحركة السلطانية ضد بوحمارة سنة 1903. وفي سنة 1906 أبرم تحالفا مع مبارك الجلولي ضد قائد قبائل حاحا احمد أنفلوس، ثم سيغير هذا التحالف لعدم نجاعته ليستبدله بقبائل الشياظمة وأبناء أبي السباع واحمر الذين مكنوه من هزم غريمه؛ ثم تحالف مع الكلاوي ضد القائد الكندافي. غير أنه في سنة 1907 سينحاز إلى مولاي عبد الحفيظ، ثم ينقلب عليه لدعم المخزن العزيزي، وسيتمكن طيلة الفترة الزمنية الفاصلة بين 1907 و 1912 من سحق كل القبائل التي تعارضه بحوض تانسيفت خاصة مزوضة، إلى درجة انه سيحاصر مراكش وسيدخلها في مستهل أكتوبر 1909 بعد استسلام الحاج التهامي الكلاوي. وإلى جانب ما سبق، سيعمل المتوكي على دعم المشروع الاستعماري الفرنسي بالجنوب المغربي منذ 1913 عبر مساهمته العسكرية الفعالة في إخضاع قبائل الجنوب للسلطة الفرنسية. انظر أيت الحاج محند، مادة متوگة، **معلمة المغرب**، ج ، ص 6976-6977.

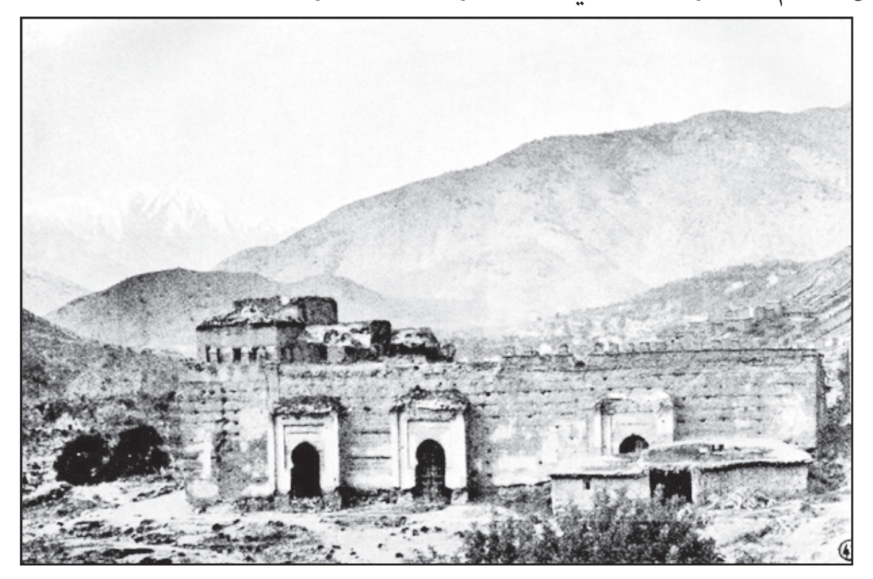
(2) بوابوض: قصبة على سفوح الأطلس الكبير الغربي، على بعد 70 كلم إلى الجنوب الغربي من شيشاوة تابعة لجهة مراكش – تانسيفت - الحوز، شيدت في القرن 18 وشكلت مهد الأسرة المتوگية.

(3) الطيب الگندافي: ينتمي لقبيلة گندافة المستقرة بأعالي واد نفيس. أحد القادة الثلاثة الكبار إلى جانب الگلاوي والمتوكّي، الذين فرضوا سلطانهم على قبائل الأطلس وسهول الجنوب المغربي. وكان الگندافي من كبار قواد مولاي عبد العزيز، وعامله على السفوح الشمالية للأطلس الكبير المطلة على بلاد الحوز، وكان أشد القواد بأسا حتى سنة 1906، إلى أن استغل منافساه المذكوران مقامه بالعاصمة فاس (1907) للتحالف ضده وغزو مناطق نفوذه، دون التمكن من الدخول إلى منطقته الأصلية بنفيس العليا إلا بدعم من الرحامنة وقائدها العيادي، حيث انكفأ على نفسه مستغلا ذلك لبناء قصبته أگادير-ن-گوج، ونأى بنفسه حتى عن تطور الصراع بين الأخوين مولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ. ولم يستعد دوره السياسي إلا في 1917 عقب توقيع عقد الحماية حيث سيكلفه الجنرال ليوطي بإخضاع سوس بتعيينه باشا على تيزنيت من أجل إخماد حركة أحمد الهيبة، ولدى عودته إلى مراكش وجد الگلاوي قد استثمر غيابه لتجريده من نفوذه بالحوز والأطلس. وكانت وفاته بمراكش سنة .1928 انظر سيرته التفصيلية لدى عمر الگندافي، **قائد من مغرب الأمس - الطيب الگندافي**، دار النشر مرسم، الرباط .2016

(4) المدني الگلاوي (تـ 1918): قائد مخزني، عينه السلطان الحسن الأول خليفة له على رأس عدة ولايات بالجنوب. وبعد وفاة هذا الأخير واصل انتدابه في عهد ولده مولاي عبد العزيز، حيث مكن قبيلته گلاوة من حيازة نفوذ واسع على حساب قبائل أيت واوزگيت، ووسع ذلك إلى منطقة درعة، قبل أن ينحاز في صيف 1907 إلى صف أخيه مولاي عبد الحفيظ، وقد كافأه هذا سنتان بعد ذلك برفعه إلى منصب الصدر الأعظم، مما مكنه من توسيع نفوذه بإدماج أقربائه في المناصب المخزنية المختلفة، فذاع عسف وجور آل الگلاوي وانتهى ذلك بتجريد المدني من منصبه الأسمى (1911). ومع فرض الحماية الفرنسية استعاد المدني الگلاوي نفوذه وعين باشا على مدينة مراكش. وعند وفاته خلفه شقيقه التهامي. انظر: محمد أوجامع، مادة الأگلاوي المدني بن محمد، **معلمة المغرب**، ج 2، ص 624-623. وأيضا:

Jacques Le Prévost, **El Glaoui**, Paris, 1968, p. 22

ومحترمون في البلد، وقد حلت الأدبيات الفرنسية بمبالغة أولئك القواد بلقب «سادة الأطلس». ونود الاعتقاد بأنهم قد قطعوا مع تقاليد أسلافهم التي أمكنت الكتابة عنها: «إحراق المحاصيل، وقطع الأشجار المثمرة، وإفراغ المطامير، ونهب الدواوير والقرى، والإغارة على القطعان، واغتصاب النساء والغلمان، وبكلمة واحدة تخريب منطقة أو تعريضها للنار والدم عن طريق الاعتداء على الضعفاء بصورة خاصة»، إن هذا ما شكلته على الدوام مظاهر السلطة. في أزمنة أخرى عادات أخرى!



أطلال المسجد العتيق بتنمل (تصوير: Gillot)

لا يتم اختيار موقع القصبات اعتباطا، بل كان نابعا من الدور الذي شاء الشيوخ أن تتقلده؛ وهكذا أنشئ بعضها على المداخل الكبرى، أو مخانق الأودية. إن دور هاته الأخيرة استراتيجي تماما، إنها حصون ردع بين الجبل والسهل؛ وبعضها الآخر فوق الصخور أو ربى كبيرة، كما لو شاءت تبني بخيلاء جاذبة بمعزل عن المنازل البسيطة للأمازيغ، وقد لا يكون ذلك إلا سلوكا يتناسب والكبرياء الإسلامي. وفي الأخير، يلتصق بعضها بموضع التقاء السيول، ويشكل مظهرا شبه زراعي وشبه دفاعي؛ وكقلاع زمن الحروب تصير مخازن للمحصولات أوقات السلم، وتعطي الانطباع - الخاطئ ربما - بكون ملاكها الأثرياء مجبرين على الجنوح إلى القوة لحماية أراضيهم بدل استعمالها لمضاعفة نفوذهم؛ إنها ضيعات مفعمة بالأفراد البدو المحترمين.

من الناحية المعمارية، يمكن تصنيف القصبات في مجموعتين اثنتين، تلك التي بنيت طبقا للقواعد القديمة، وليس لها أكثر من نصف قرن من الوجود؛ والأخرى ذات تقنية عصرية، تؤرخ بأقل من عشرين عاما؛ ولا يعني هذا أنه لم توجد قصبات بالأطلس فيما مضى، وترجمة هذا على ذلك النحو سيكون خطأ، لأن الإخباريين العرب القدماء قد أشاروا إلى ذلك.

والحقيقة أن المنشآت بالتراب المدكوك لم تصمد أمام هجمات الرجال مثلما أمام عوادي الزمن، وأن الأطلس قد وجد نفسه في القرن 19 مشتتا بقصبات وإگودار شبه خربة، ومحطمة، ومنهارة، وكان كافيا لجيل واحد بروز تلك الظاهرة. أضف إلى ذلك، وأحيانا بحسب رغبة القائد أو خليفته أو حتى لشيخه – ستتم الإشارة لاحقا إلى هاته الشخصيات – يتم تقويض تلك الأطلال بضربات المعاول، وفي موقعها إعادة بناء أسوار سميكة من التراب تطلق عليه تسمية «اللوح»؛ وأحيانا أخرى في حال صمود المادة في وجه تقلبات الطقس يتم استغلال متبقياتها.

يشير مونطاني جيدا إلى عملية البناء تلك، حيث كتب في سنة 1930: «كانت الجدران التي تدعم الأبراج المكللة بالشرافات تحضن حتى عشر سنوات خلت مخزنا جماعيا للتجمع. وقد قدم الغزاة، وتملكوا الأگادير وأقواته؛ ثم بعنايتها قامت القبيلة ببناء حزام في المحيط، وشيدت الأبراج، وطليت الجدران، وهيئت الحجرات والقاعات؛ وفي غضون بضعة أشهر ظهرت على ذلك النحو فوق أساسات قلعة للتجمع قصبة فيودالية حقيقية. وكانت بضع سنوات كفيلة بالطبع بتصدع أسوار التراب، ومنح تلك الدار الفاخرة المظهر العتيق».

إذن، ليست هناك في أصول القصبات تصميم دقيق، وإنما تجاور لبنايات متلاصقة، دون اكتراث بالتناظر وبالطرز المختلفة. والمجمل مبهر ومربك، نرى فيه باختلاط حجرات، وفناءات فسيحة محاطة بإسطبلات لاحتضان مطايا الفرسان، ومخازن يتم فيها تكديس المؤن، وأسوار منيعة حد الإمكان، وأبراج عالية. وفي بعض الأحيان تلتقط ساقية عين ماء قريبة، وتضمن التموين الداخلي. وفي الأخير، في النواحي، مراكز للمراقبة من أجل التنبيه.

والكل عبارة عن كتلة عند القاعدة، وتتضاءل نحو الذروة، لا من أجل التجميل، وإنما ببساطة بأخذ الصمود في الحسبان؛ إذ قبل إقرار السلم الفرنسي بالجبل وجب دائما التفكير في منافسات الخصوم، وفي الحروب بين القبائل، وأيضا في هجمات قوات المخزن. والقاسم الآخر المشترك بين تلك القصبات، ألا شيء لم يتم توخيه في سبيل تصريف مياه السطوح والأسوار، إذ تسقط هذه عند سفوحها، وتفرغها عند القاعدة في هيئة برك. ومن جهته فإن نقصان المعالجة يساهم في مد فترات بقائها، وكافة هاته الشروط مجتمعة تفسر أخيرا السبب الذي يجعل تلك القلاع في استصلاح متواصل.

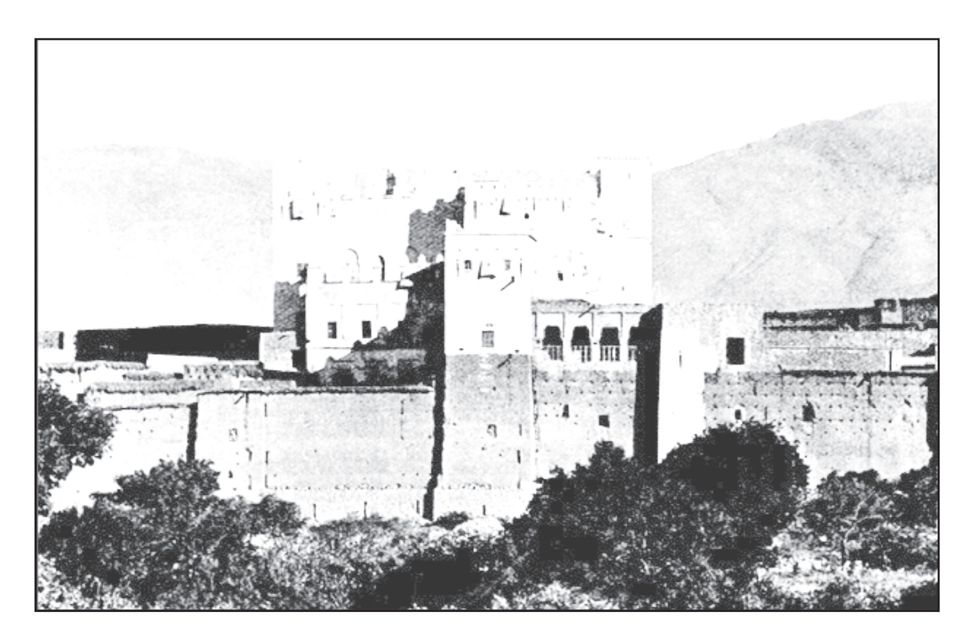
لا يجب التغاضي أبدا عن نسب جزء من ذلك إلى كبرياء الرجال، وتبعا لصيرورة الشيخ أكثر نفوذا، تتزايد احتياجاته؛ إذ تلزمه مساحة أكبر وتزيين أقل. فإلى «رياض»[1] شديد الصغر يضيف آخر، ويراكب الحجرات بعضها إلى بعض، ولكن دائما من دون تصميم مسبق، ويسترشد تماما بضرورات الوقت، خاضعا في ذلك لذهنية جنسه. تلزمه دون كلل غرفا جديدة لنسائه الأكثر تعددا، وقاعات أكبر اتساعا لاستقبال الضيوف العابرين، شيوخا أو أفراد، قادمين من كافة أرجاء مجال متعاظم على الدوام.

ورغم أنه يعيش ببساطة هو ذاته، نائما في الغالب فوق حصير قاتم اللون، يقوم القائد الجديد مع ذلك من أجل حسن استقبال الضيوف المميزين بتشييد بضع حجرات بهية، مزدانة بسذاجة برفاهية خشنة تبرز فيها الرغبة البدائية للأمازيغي في إظهار ثروته لسكان الجبال. وعن قريب ستصبح القلعة – التي صممت في البداية من أجل الحرب – شديدة الضيق، وغير كافية لمتطلبات قيادة واسعة. وعلى ضفة مجرى مائي، وسط الحقول الأكثر خصوبة، والتي أخذت من العدو، يقوم رعايا القائد لمنفعته بتشييد قصبة جديدة ذات جدران أقل حصانة، وحجرات أكثر اتساعا وأكثر زخرفة. على ذلك النحو بنيت القصبات العتيقة.

إلى جانب ذلك النوع القديم المتسم بالألق والتنوع، توجد بالأطلس ديار عصرية محصنة تعود لعشرين سنة، ذات مظهر ثقيل، وتقنية تقارب البناء المعتمد في

(1) بستان داخلي (المؤلفان). وفي شأن الرياض انظر: عائشة البلغيثي العلوي، مادة الرياض، **معلمة المغرب**، ج 11، ص 4500-4502.

المدن المغربية. وفي بعض الحالات، على غرار قصبة المتوكّي ببوابوض، لا يمنع هذا من ترابط النمط الحضري للمنازل الحديثة مع الأبراج الأمازيغية القديمة، وتباين بعضها بغرابة مع الرضم الجبلي بالحجارة الجافة، وربما أيضا لتذكير القرويين بالنفوذ العنيف للقواد، وسطوتهم الساحقة. إننا لا ندرك أبدا ما يفكر فيه عقل أمازيغي!



قصبة السي محمد تلوات (تصوير: Gillot)

وفي كل الأحوال هناك أمر مؤكد، كون تلك القصبات الحديثة الشماء قد تكاثرت منذ سنة 1920، متخذة مظهر الإقامات الفخمة المزدانة بأبراج عالية مطلية بالجير، مكللة بالشرافات، وبأناقة عصرية للغاية، ومجهزة بمرائب للسيارات. يرد البعض ذلك إلى كون التق دم قد طال الأطلس بأجنحة مرفرفة، ويعتقد البعض الآخر – ليس دون حق – أن ذلك التطور دلالة على الأزمنة الحديثة التي أدخلتها فرنسا إلى المغرب؛ فالتخلي عن الجهاز المحارب السابق يدل على أن الأمن قد ساد في البلاد، وأن القواد الأمازيغ أحسوا بعدم حاجتهم إلى حماية أنفسهم من خصوم الداخل والخارج.

لا يقصي هذا التحديث بعد التأثيرات المعمارية القديمة، وهذا لمنفعة السائح؛ غير أن ذلك سيحدث لاحقا، وتمكن الخشية منه، بالنظر إلى نموذج قصبة الكّلاوي بتلوات التي تكشف عن مساهمات التقليد المخزني على حساب الزخارف الجميلة المستقدمة

من درعة ودادس؛ وهذا في الوقت الراهن لحسن الحظ ليس إلا استثناء، وفي القصبات الأخرى سنجد بوفرة تلك الزخرفة الهندسية التي ليست ربما خاصة بالأمازيغ، والتي يعتقد البعض انتسابها لحضارة انقرضت، لكنه مع ذلك تم الحفاظ عليها وتطويرها في جبال شمال إفريقيا.

هل من المفيد في هذا الصدد التذكير بأن الحظر المفروض لدى المسلمين على الصور قد تم التقيد به بشدة في المغرب؟ وبأن مجمل الدليل الزخرفي للأمازيغ لم يتشكل قبل أي شيء إلا من الزخرفة الهندسية باستثناء الخط، والتشكيل التوريقي؟

على أسوار القصبات أو «تيغرمت» يوجد موضوعان: المعيَّن والرمز اللذان تلحق بهما أحيانا علامات طوارقية، كما لو شيء الإمعان زيادة في غموض زخرفة تلك المآثر الفريدة حقا في العالم، لأنه لا يجب التشكي من الرتابة. في الزخرفة الأمازيغية تمتد الاستقامات اللامحدودة، أو تتفرع إلى توليفات عديدة، وتأتي مئات العمليات التفصيلية أيضا للتخفيف من صرامة تلك الخطوط، ولتمنح تنوعا كبيرا للتشكيلة؛ وكما يقول هـ. طيراس (H. Terrasse)[1] بجلاء: «في تلك الزخرفة الساذجة، لا يوجد جمود، حيث ترسم الحركات وتتطور، وتفاح الأشكال الميتة في تقليد مرونة الحياة».

وإذا كانت بساطة الخطوط تعيد إبراز الأشكال المتنوعة، فتجب أيضا – وكخاصية للفن الأمازيغي – إضافة بساطة اللون الذي يجعل منه فنا شديد القوة، الميزة التي تبرر الجاذبية المسترسلة التي تفرضها القصبات على السياح؛ لأنه وجب الإقرار بكون التشكيل المجمل، أبعد عن أن يكون خاليا من الشوائب، يواجه أكثر من انتقاد، غير أن تجاور عدد صغير من الألوان، وتعارضات مرغوب فيها، وأثر الألوان، منح نظاما معينا في التشكيل الزخرفي، يترك انطباعا ما لم يكن رائعا، فإنه ممتع على الأقل.

---

(1) هنري طيراس (1895-1971): مؤرخ فرنسي متخصص في تاريخ المغرب وحضارته، وأحد كبار موظفي سلك التعليم في عهد الحماية منذ التحاقه بمعهد الدراسات العليا الإسلامية (1923) حيث أسندت إليه إدارة الدراسات الأركيولوجية والفنون الإسلامية؛ وبعد تقيم أطروحته في موضوع « الفن الإسباني المورسكي من الأصول إلى القرن 13م «(1933) أصبح رئيسا لمصلحة الآثار التاريخية إلى حين مغادرته للمغرب (1957)، بعدما أضحى مديرا لمعهد الدراسات العليا الإسلامية (1941)، مواكبا ذلك بإنجاز العديد من الدراسات القيمة، ومن بينها دراسة عنوانها « **القصبات الأمازيغية بالأطلس والواحات – المباني الكبرى بالجنوب المغربي**، أقدمنا على ترجمته والتقديم لصاحبه ونشره بعناية معهد الشارقة للتراث (2019)».

فعلى عكس الطراز القوطي أو النهضوي المنتشرين في أوربا، يمنح الجبل طرازا أكثر بدائية، وزخرفة أكثر عنفوانا، وبذلك لم تتضاءل فيه الفتنة؛ ومن ثم ظلت هاته القصبات تجذب أيضا اهتمام السائح بالحياة الأصلية التي تحتضنها. وفي الوقت الراهن أضحت القصبة قلعة وقصرا ومخزنا ومحطة للقوافل، إنها مقام السيد، الذي وقد انتدب للمهام المخزنية، يفرض سلطته المطلقة والأكثر امتدادا بحق الحياة أو الموت على رعاياه. إنه يستغل ذلك ويسيء استخدامه بصورة طبيعية.

هنا أيضا تتألف التحالفات السياسية المتعارضة في هيئة زيجات مع أجمل فتيات البلد، وآنذاك كان القواد الأمازيغ يتقيدون بالاقتران بامرأة واحدة، وراهنا كونوا حريما مهما، ولا يندر توفرهم على المئات من النساء دون اعتبار الإماء اللواتي ينجبون منهن عديدا من الأطفال. ويورد بريف[1] حوالي سنة 1901 بأن النساء كن بعدد أربعمائة امرأة في قصبة الكَندافي، وكان عدد لا متناه من الإماء يقمن على خدمتهن. كانت تلك النسوة تحت رقابة بواب مكلف بحمل «المونة» أو الأقوات اليومية إليهن، ويراقبن عن كثب من طرف القائد أو الخليفة الذي يراقب غالبا أنصبتهن من السكر أو الشاي أو الشمع المطلوبة على الدوام من طرف النساء والإماء؛ كما كان يحمل صرته من المفاتيح حول العنق، ويباشر بنفسه عملية التوزيع.

في تلك الأسر الأمازيغية لم تكن الثقة سائدة مثلما هو الحال في الغرب[2]، ولم تمر فترة طويلة عن رؤية سيد القصبة « في ركن من الباحة منعزلا عن الخدم، ومصانا من ضربة سيئة ممكنة دوما بقضيب خشبي، قاضيا ساعات طوال في تلقي الأنباء، وفي إملاء الرسائل، وفي ترؤس توزيع الأقوات، والحرص من خلال الشبابيك على معاينة قيام العبيد بتقديم حصة الشعير لبغله أو حصانه».

---

(1) بريف: أكاديمي جيولوجي فرنسي، انتقل من الجزائر إلى المغرب (1901-1902) بأمر من السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر لدراسة البنية الجيولوجية للبلد، حيث قام بعدة جولات استكشافية لربوعه المختلفة فيما بين سنتي 1901 و1906، وفي أعقاب ذلك دون مشاهداته وارتساماته ورسومه الجغرافية وعاداته وتقاليده، أسماه «رحلات بالمغرب 1901-1907». انظر إبراهيم بوطالب، مادة بريف، **معلمة المغرب**، ج 4، ص 1226-1227.

(2) حكم قيمة تجنى به المؤلفان على الساكنة، وقد يكون ذلك استثناء أضحى في نظرهما قاعدة.

يشكل توزيع الأقوات مشهدا غريبا للنظر بما فيه الكفاية، فخارج 1.400 أو 2.500 فرد الذين يحيون داخل القصبة تغمر الفناء الداخلي في بعض الأوقات جمهرة من الجوعى تمنح لها « الحريرة» أو كسكس الشعير، فيجلس كل واحد في الموضع الذي يحلو له لتناول حصته، وفي بعض الأحيان تزدان الوجبة بألعاب الاستعراضيين وحواة أفاعي سوس أو تشويق رواة القصص المثيرة؛ إنها مشاهد تعرف دائما نجاحا مؤكدا، وتذكر بأزمنة الفنانين المتجولين.

وسط تلك الجمهرة النابضة بالحياة يقضي القائد حياة هنيئة ومنفردة، ما لم يستقبل أوربيين؛ وفي تلك الحالة يسارع لأجل الاستقبال الحسن لضيوفه، والترفيه عنهم بأهازيج ورقصات البلد. وخارج تلك الاستقبالات، الجديرة بالشخصيات البارزة في الغالب، ينظم جلسة استماع لفائدة أفراد كثر يستعجلون الدخول إلى القصر، والذين يوضعون تحت إشراف «رئيس الضيافة» الذي تتحدد مهامه في تأمين أقواتهم وأقوات مطاياهم. لكنه من بين أولئك الرعايا كم عدد الغاضبين؟ وكم هم الفلاحون القادمون إلى القصبة لبيع محاصيلهم غير الناضجة من اللوز البكر، أو لوضع حقولهم قيد الرهون لتسديد السخرة أو أداء المغارم والجبايات؟[1]

وعديدة ودموية هي التمردات التي أتلفت الجبل في السابق حينما كانت الظروف تسمح بذلك، وحدثت غالبا بسبب فشل القواد الأمازيغ في الدفع بقبول سلطتهم بطريقة دائمة، إلى درجة أن قيادتهم لم تكن أحيانا إلا عابرة على غرار قصباتهم الطينية. وبغض النظر عن ذلك، فإن القائد هو زعيم الناحية وممثل المخزن، كما أن جولاته شكلت حدثا بذاته « يسير الفرسان والعبيد جيئة وذهابا، وكل فرد يستعجل أمام القائد لتحيته باحترام. وبمقدور البعض الدنو منه للتمكن من تقبيل «بلغته»[2] أو أطراف ردائه، فيما يكتفي البعض الآخر بلثم الأرض». إنهم البسطاء الذين ينتظرون من القائد التصدق بوجبة، وذاك يستحق التعبير عن عمق الاحترام...

(1) تؤدى الجبايات عينا، وتقتطع وقت الحصاد. وتتوفر القصبة على مخازن تسمح بجمع الزروع. (المؤلفان)

(2) النعال الجلدية. (المؤلفان).



قرية ورزازات عند مقرن وادي دادس ودرعة (تصوير: Gillot)

حول القصبة يوجد دائما عدد كبير من الزنوج – حيث إن المخزن قد كان على الدوام مستوردا كبيرا للسود – واليهود المتسخين المرتدين للقلنسوة السوداء اللامعة بالدهون، والتي تتدلى منهم خصلات الشعر الطويلة الساقطة قبالة الأذنين، لأن كل قائد مغربي يحترم نفسه يحيط ذاته بأسر إسرائيلية، لا بسبب محبته لهم أبدا، إذ لا يبدي أية عاطفة، وإنما لكونه في حاجة إليهم فإنه يستغل ذلك. في السابق، كان يجبر كل فرد منهم

على أداء ثلاثة دورو[1] شهريا، وكان ذلك ثمنا لحمايته النافذة لقاء منح حرية المبادلات في القرى الأمازيغية لليهود.

واليوم، يضع بعض المؤلفين اليهود في الدرجة الدنيا من التراتبية الاجتماعية، ويؤكدون بما أنهم مملوكون للقواد لم يكن هؤلاء ينظرون إليهم كأفراد حقيقيين، ويبدو هذا الزعم مبالغاً فيه. وفي الحقيقة، وتحت حماية القصبة، أقر «ملاح» صغير مأهول باليهود الذين ييسرون التجارة المحلية، ويعقدون الصفقات بين الأمازيغ، ويغطون الجبايات بشكل غير رسمي على الأقل، وعلى استعداد دائم للتقديم المسبق بفوائد كبرى للمبالغ الناقصة للفلاحين، وأحيانا بأموال القائد نفسه الذين هم وكلاؤه المصرفيون.

إنه حلف غريب لعرقين يتباغضان ويتواءمان مع ذلك، من دون شك لأن هؤلاء الإسرائيليين قد يكونون أحفاد أولئك الأمازيغ المتهودين الذين عمروا البلد سلفا. وفي الوقت الراهن يشكلون جزء لا يتجزأ من البلد الذي ينشطونه بمفردهم، وتمنح أعمالهم المتصلة بأشغال الحرفيين والخدم والعبيد للقصبة طابع المدن الصغرى في قلب القبائل.

وفي الأخير، وجبت الإشارة - كمؤسسة أخيرة موجهة لمنح فكرة سامية عن نفوذ القواد - إلى السجن، أو بالتحديد المعتقلات الواسعة الممتدة داخل الأنفاق العميقة بعيدا عن الأنظار الفضولية. هنا ببطء وسط الحشرات والأمراض، وأحيانا تحت التعذيب، يقضي قطاع الطرق والمتردون الأكثر جنونا جراء محاولة الصراع ضد القائد، وحتى أولئك الذين لا ينتمون لأية فئة من تلك الفئتين، لكن كانت لهم محنة التعرض لسخط قائد المكان، أو لتكدير صفوه...

ليست قصبة القائد ما تنتصب وحدها فوق المنازل المسطحة لرعاياه البسطاء، بل في جوارها توجد ديار أخرى أقل شساعة وفخامة، سميكة الجدران، وعالية الأبراج؛ إنها إقامات أقارب القائد، وهو ما يدعو إلى القول بحق إن البلد قد خضع لا لنفوذ قائد فحسب، وإنما بالخصوص لنفوذ أسرة بأكملها. وتزيد المسألة تعقيدا بوجود الخليفة، الذي بتكلف بجباية المغارم، ويقوم بالتسيير باسم القائد، ويبلغ أوامره حتى إلى أعماق

(1) حول هذه العملة انظر عمر أفا، مادة الدورو، **معلمة المغرب**، ج 12، ص 4097-4098.

الأودية الأكثر نأيا، ويلوذ بقلاع متينة الأسوار مشيدة بالسخرة من طرف أفراد القبائل تحت إشراف المعلمين البنائين القادمين في الغالب من أيت بو يحيى بالصحراء[1].

نتخيل بسهولة أعمال الاستبداد التي يمكن أن تسفر حقا عن وضع مماثل؛ إذ تبين أن الوظيفة الرئيسية لأولئك النافذين الصغار هو إجبار السكان على أداء المساهمات الكبيرة الممكنة، دون الاكتراث باحتياجاتهم، ولا فحص مصادرهم، والاكتفاء فقط بالتنفيذ الأعمى وبحماس للتعليمات التي تلقوها من القصبة القيادية عبر المخازنية المكلفين بإقرار النظام في المنطقة. وفي حقيقة القول، فإن الخلفاء هم محاربون غرباء يتحولون إلى جباة جشعين، لأنه من دون كلل ومن قصوره البعيدة، يطالب السيد الأعظم من رعاياه تضحيات جديدة. إنهم لا يتدخلون في الحياة المحلية إلا لقمع التمردات التي تولدها أعمال الشطط.

وتداعيات هذه الوضعية مزدوجة : أولا الإضعاف العام للبلد المسحوق بالمساهمات المتوالية والمبالغ فيها، ثم تناقص ساكنة الجبل، حيث ينزح الأفراد صوب السهول ومدن شمال المغرب فرارا من انتهاكات قادتهم؛ إنه تراجع اجتماعي خطير حقا.

قد توجد فئة وحيدة من الرجال منعم عليها حيال متطلبات القواد، لأنها وحدها من تقدر على الوقوف في وجه سلطاتهم الزمنية بسلطة أخرى وجب أخذها في الحسبان؛ وهؤلاء، بفضل انحدارهم من الصلحاء المحليين العظام أو من أسرة الرسول (ص)، يتمتعون لدى الأمازيغ بوضعية متميزة. يحيى البعض منهم - وقد اجتذبته المنافع - في فلك القواد الكبار خاضعين للمخزن، غير أن غالبيتهم العظمى تفضل البقاء في أدوارها التي استقتها من أسلافها، وسطاء بين الناس والله. تسند إليهم ميزات سحرية قادرة على تأمين الازدهار في الأماكن التي يعيشون فيها، ويشكل وجودهم بركة للمعدم الذي يحظى بشكل غير مباشر بسكينة أولئك الزعماء الدينيين المنزوين داخل القصبات أو الزوايا، الواحات الحقيقية للسلم والطمأنينة وسط منطقة تسحقها سلطة القواد.

---

(1) يقصد آيت بويحيى، قبيلة بنواحي تيسينت، إقليم طاطا.

حينما تدرك الوضعية المتناقضة للأفراد في قلب القرن العشرين، ونجد أنفسنا في حضرة تلك القلاع ذات أسوار التراب المدكوك، والتي أعيد كسوها سريعا بمظهر الزمن العتيق مما يمنحها قدم المشهد، نشعر بالانطباع بعودتنا فجأة إلى ثمانية قرون أو تسعة إلى الخلف، ونتخيل بالسليقة على وجه التقريب أوربا القروسطوية والفيودالية. ولم لا نقر بذلك؟ إن الانطباع مناسب تماما، ودائما ما يعجب السياح السعداء باكتشاف أمر لم تسبق لهم رؤيته؛ وإن كان لأولئك السياح حظ تلقي ضيافة فخمة، فإن المقارنة بأسيادنا في القرون الوسطى تنغرس بقوة في أذهانهم.



قصبة تاوريرت بورزازات (تصوير: Gillot)

لا يمكن إلا التأسف لذلك، غير أنه علينا تبديد ذلك الخلط؛ فلكي يظل المسافر على انطباعه، وهذا حقا ما يطلبه في الغالب، ليس هناك ما يحول دون ما تكفيه من مظاهر تبدو له ممتعة علاوة على ذلك، لكن إن شئنا تكوين فكرة دقيقة عن الحقائق وجب إبعاد التقابل التاريخي. وفعلا، ليس من الحكمة التمسك بأوجه التشابه، فشمال إفريقيا تشبه على الدوام شمال إفريقيا كما قال دوتي، ولا يجب الاكتفاء بكون إقامة قائد في حصن، وأن يكون له خدم، أو يقوم بالاصطياد بالصقر، ويركع القرويون في

طريقه، أو يقيم العدالة على عتبة قصبته، حتى يمكن أن نجعل منه بارونا فيوداليا.

في الأطلس ليست هناك نظم تبرر مقارنة بين نظام الحيازات ونظام الهيئات الفيودالية، ولا حقوق وراثية للعبيد مماثلة لحقوق الأقنان، ولا تراتبية بين القواد، ولا روابط تبعية، ولا محاكم فيودالية؛ وكافة تلك المؤسسات البارزة في القرون الوسطى مفقودة هنا تماما. إذن وجب التخلي عن تلك المقارنة الجذابة حينما نشاء فهم الأطلس.

إن كان التمسك بالقيام بالتقريب، من الحكمة إذن عدم الإمعان في التدقيق، وإنما إلى ذاك الذي يقبل به العقل، إذ يبدو أنه يستوعب جيدا الوضعية البدائية لتلك القبائل الجبلية، ومن ثم يجب الرجوع إلى الحواضر البدائية لليونان وروما. ففي كتابه القيم أرسى دو ماسكوري (de Masqueray)[1] مقارنة غريبة حقا بين منطقتي القبايل والأوراس وبين روما القديمة، وهذه الموازاة يمكن استعمالها بفائدة في المغرب للسماح لعقولنا العصرية باقتحام الهوة التي تفصلنا عن تلك الحضارة بطيئة التطور؛ غير أنه هناك أفضل من ذلك، كما لاحظه فيدال دو لا بلانش (Vidal de la Blanche)[2] بجلاء، حيث أن أوجه التشابه هي أعمق في المناطق الجبلية التي ظلت بمنأى عن التيارات البشرية الكبرى، مثل ألبانيا أو كورسيكا أو ساردينيا. هناك وجب توجيه الأبحاث والمقارنات، وعبرها تنتهي أسطورة تلك الفيودالية الأمازيغية التي تمثلها أو تعتقل فيها قبائل الأطلس[3].

---

(1) مه أستاذا للتاريخ بمدينة الجزائر (1872-1878) تعلم اللغة العربية واللهجات الأمازيغية انطلاقا من سنة 1873، واهتم بالدراسات الاجتماعية للقبائل الأمازيغية بالجزائر.

(2) بول فيدال دو لا بلانش (1845-1918): جغرافي فرنسي كان له تأثير عظيم في تطوير الجغرافيا المعاصرة، وفي تصديه لمنصب البروفيسور في جامعة السوربون (1898-1918)،. لا سيما بانكبابه على الجغرافيا البشرية حتى عد مؤسسا لها بفرنسا. وبعد وفاته جمعت أبحاثه في كتاب سمي « مبادئ الجغرافيا البشرية « (1950).

(3) المراجع:

A. Martin, **Les Oasis sahariennes**, 1908, p 38 ; S. Gsell, **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord**, 1928, p 319 ; E. Doutté, **En tribu**, p 53 ; Léon l'Africain, **Description de l'Afrique**, trad. Ed. de Scheffer, 1896-1897, 1, p 134-235 ; R. Montagne, **Les Berbères et le Maghzen**, pp 22, 66, 126, 264, 341, 342, 345, 347 ; A. Bernard, **Les confins algéro-marocains**, pp 106, 120, 134 ; Coissac de Chavrebière, **Histoire du Maroc**, 1931, p 398 ; A. Cehnier, **Recherches historiques sur les Maures**, III, p 424 ; L. Justiniard, Notes sur l'histoire du Sous au XIXe siècle, in **Hespéris**, 1922, P 159 ; G. Hardy et J. Célérier, **Les grands lignes de la géographie= = du Maroc**, 1922, p 159 ; H. Terrasse, Le sens artistique des Marocains, in **Bulletin de**

الفصل الخامس

في أعالي دادس

من المتوقع في سنوات قليلة ألا تكتفي السياحة فقط بالجولات في الأطلس، بل وجب السير إلى أبعد من ذلك، بالدنو من الصحراء، وبالاطلاع من خلال ذلك على خصوبة وجمالية بعض أرجاء الأودية شبه الصحراوية عند سقيها؛ ومن بين هاته الوديان الأكثر أصالة دادس[1] ودرعة[2]، الشريطان الضيقان للخضرة، والمتعرجان عبر امتدادات القفار المأهولة بقرى عديدة تمنحهما مظهر الأزقة اللامتناهية.

بطبيعة أكثر قساوة للجبال العالية المؤلفة من أحزمة فسيحة، وأخاديد عميقة، وقمم غريبة متوالية، يوجد مجال من السهوب القاحلة شديدة الشبه بالقفر، ويا له من تحمس حينما يصل السائح بعد تجاوزه للصخور إلى نواح مبهجة ترقد فيها القرى فوق سطوح مزروعة محمية خلف أشجار الزيتون الرائعة؛ إنها تنبئ بالأودية الخصيبة لأعالي دادس ودرعة وسوس، والتي يرسمها فوق النجود خط متواصل من النخيل ذي التمور الشهيرة، وأشجار ثمار رائعة المشهد ناهضة وسط عطر الورود.

إنه منظر الواحات الأكثر غنى والأكثر أهمية في المغرب، وأيضا منظر المواقع البهية المفعمة بقصبات أصيلة الطراز، أعاجيب حقيقية قائمة بين أشجار النخيل.

---

l'Enseignement du Maroc, mai 1924, p 283 ; Brives, **Voyages au Maroc**, 1909, pp 161, 388 ; E. Doutté, **Marrakech**, p 400 ; de Masqueray, **Formation des cités chez les sédentaires de** l'Algérie, 1886 et Vidal de la Blanche, **Tableau de géographie de la France en 1907**.

(1) واد دادس: أحد الروافد الرئيسية لنهر درعة، ينبع من الأطلس الكبير الأوسط عند جبل بويقولا، وينحدر باتجاه شمال-شرق-جنوبي بمسمى أسيف-ن-أمضغوس، ثم دادس حتى منطقة اتصاله بدرعة. انظر محمد أيت حمزة، مادة دادس، **معلمة المغرب**، ج 12، ص 3899-3901.

(2) نهر درعة: نهر تنبع روافده الرئيسية، دادس وورزازات، من جبال الأطلس الكبير وسيروا، ويصب مرورا بواحات درعة خلف الأطلس الصغير في المحيط الأطلنتيكي شمال مدينة طانطان. انظر أحمد البوزيدي، مادة درعة، **معلمة المغرب**، ج 12، ص 3992-4003.

والعرض لا ينسى قدر ما أن القرى والقصور تكتسي فيه طابعا أنيقا خاصا بالمنطقة، وأيضا لأنه هنا – حسب المكتشف رولفس (Rohlfs)[1] – وليس هناك إلا هذا « في التدفق الخالد والخارق للماء توجد نباتات مورقة، وبها تنمو أشجار الثمار الوليدة تحت الأثر المناسب للمناخ المتوسطي».

الأودية مأهولة بقرى كبيرة محصنة تتخذ تسمية «القصر»[2]، وهي مخازن وأسواق يأتي إليها الرعاة لتصريف منتوجات قطعانهم لقاء الحبوب والأقوات المجلوبة التي يحتاجون إليها. تنضغط تلك القصور فوق مساحات ضيقة، وشيدت وفق تصاميم مختلفة رغم أنها تستجيب لنفس المهمة، أي صد هجمات البدو؛ لكنها متوسطة أحيانا مثلما هو الحال في درعة ودادس، حيث تتجمع المنازل كما لو شاءت تكوين كتلة متراصة وحامية حول المخازن الجماعية، ولا تسمح ببروز إلا بريجات « تيغرمت «.

تتقارب هاته المنازل من أجل الحماية المشتركة، ويحدث أيضا أن تحاط القرية بسور عال، مزدوج في الغالب قدر ما كان الاقتراب من القفر، لأن مجاورة الصحراويين هنا يعدل بشكل كبير شروط الأمن المعتمد في جهات أخرى. إن البلد المزروع بعناية، والمزود بمياه السقي بوفرة يؤلف نطاق جذب واستغلال بالنسبة للتجمعات الراحلة التي تجوب الامتدادات القاحلة الواسعة للجنوب المغربي.

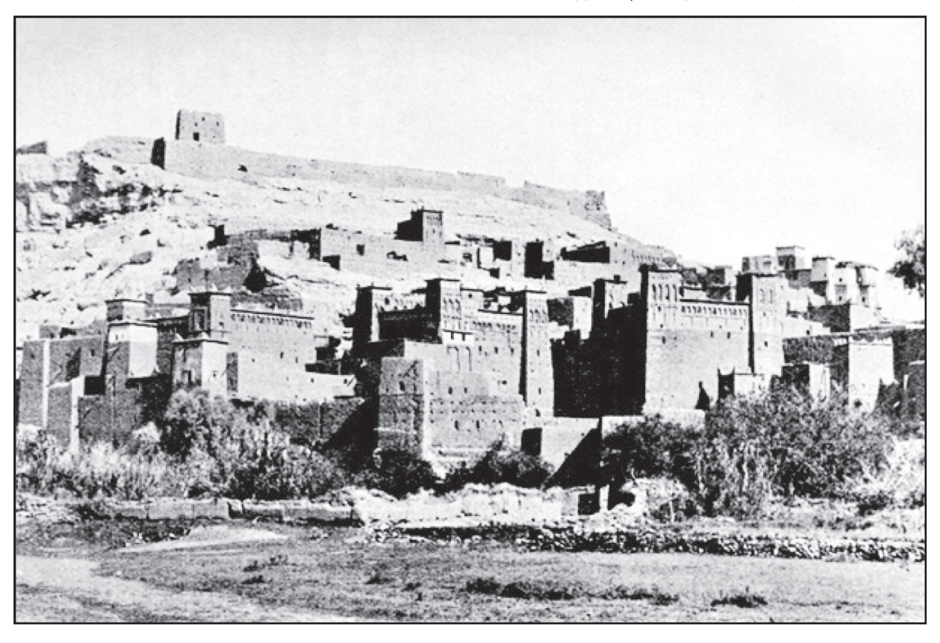
وأحيانا أخرى على العكس، كما هو الحال بالنسبة لدادس العليا، تتألف من تجمعات سكانية صغيرة مفصول بعضها عن بعض، ومتدرجة على طول المغارس. تتضمن ثمانية أو عشرة، بعضها مفتوح، وأغلبها محصن، ولكل منها «تيغرمت» واحدة على الأقل. وبوجود تلك التجمعات منفصلة بمائة إلى ثلاثمائة متر عن بعضها البعض،

(1) فريدريك غيرهارد رولفس (1831-1896): طبيب ورحالة ومستشرق وجغرافي ألماني، زار بحكم مهنته الرئيسية عددا من المناطق الإفريقية، وانتهى به المطاف قنصلا لألمانيا بزنجبار. وترك عددا من المؤلفات بلغته الأم من بينها «رحلة عبر المغرب» (1869)، و «أراضي إفريقيا وشعوبها» (1870). انظر:

François Angelier, **Dictionnaire des Voyageurs et Explorateurs occidentaux**, Pygmalion, 2011, p.595

(2) القصر: صنف من السكن تشتهر به الواحات للجنوبية بين الأطلس وتخوم الصحراء، ويمتد ذلك إلى هوامش الصحراء الكبرى جنوب بلدان المغارب، ويمثل نمطا معماريا فريدا من نوعا شكلا ومضمونا ـ اعتمد لتوفير السكن ولمراقبة الحقول ونصادر المياه وتخزين الغلال. انظر محمد أيت حمزة، مادة القصر، **معلمة المغرب**، ج 20، ص 6638-6640.

يمكن تصور مساحة البقعة التي يحتلها أحد القصور. وينجم عن هذا أن البلدات كثيرة العدد متقاربة جدا، ويصعب تمييز مبتدإ تلك القصور ومنتهاها.



قرية أيت بنحدو (تصوير: Gillot)

على واد دادس توجد غالبا منشأة ذات طبيعة خاصة تدعى «أگديم»[1]، سواء على ضفاف الواد، أو عند حدود القصر، أو وسط المزروعات، « إنها أبراج منعزلة بعلو عشرة إلى اثني عشر مترا من الآجر المجفف تحت الشمس، وبهيئة مربعة مخرومة بالشرافات، ومجهزة بالمرامي؛ وهي عديدة بالخصوص في الخطوط التي تشكل حدودا بين البلدات. وفي العادة يتقابل اثنان من تلك الأبراج، وبمجرد اندلاع نزاع بين قصرين، وهو ما كان يحدث يوميا، يقوم كل طرف بوضع رجال مسلحين في أبراجه بمهمة حماية الحقول وقنوات الري، وبإطلاق النار على أي فرد من المعسكر المقابل تصله طلقاتهم. تنجم تلك النزاعات بالخصوص بسبب توزيع مياه الواد الأشد حساسية على الدوام في

(1) أگديم: موقع يتضمن معنى الارتفاع والعلو المشرفين على مناطق واسعة، ويستغل عادة كأماكن للمراقبة والحراسة وإعلان النذير، وغالبا ما تقع عند الحدود الفاصلة بين منطقتين متوازيتين عن بعضهما البعض بسبب التضاريس. انظر علي صدقي أزايكو، مادة أگدمت، **معلمة المغرب**، ج 2، ص 607,

الجنوب، ويبدو جيدا أنها ما أسفر عن تلك الـ «أكَديم»، لأنه لا نصادف هذه إلا في بعض جهات دادس ودرعة وتدغة[1].

في هاته الواحات تقطن كبريات العائلات بالقصبات، ومع ذلك فإن بعضا منها غير مأهول، غير أنها تحتضن مخازن أقوات أهالي القصر، والذين يلوذون بها إن كان الاحتماء من غزو معاد متطلبا؛ إنها مرفق عام. إن كانت القصبة ملكية خاصة بإحدى الأسر أو أسر متخالفة متسيدة للواحة فتشغلها بمفردها، وفي هاته الحالة تكون القصبة أقرب إلى القصر، مكونة من تجمع للمزارعين المستأجرين والأحرار، سودا أو خلاسيين، والذين يشكلون الطاقم الزراعي لأسياد الموقع، إلى جانب تجمع الحرفيين والتجار الذين يحيون في تبعيتهم وحمايتهم.

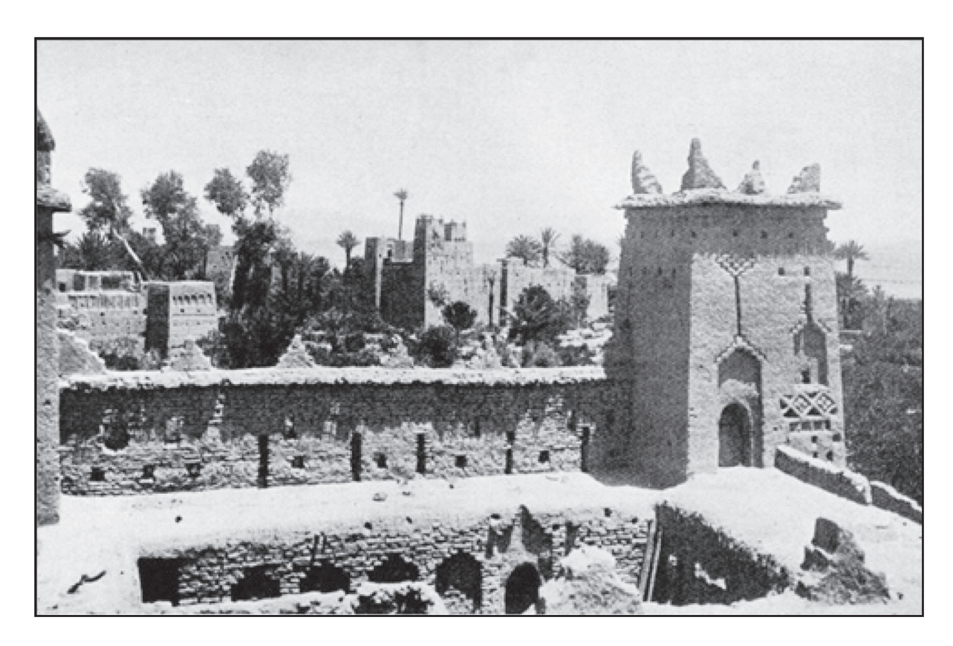
وكما هو الحال في الأطلس، ينحرف النوع المشترك بين كافة القصبات عن النمط الأصلي للحزام المربع أو المستطيل المجانب ببرجين أو أربعة، والمتصل بالستائر. يتشكل السور من جدار أو جدارين بطابقي نار أو ثلاثة، مشيدا بالطوب الخام على غرار ديار البلد، وغالبا ما يكون ذاك الجدار محاطا بخندق خارجي محدودب.

ولكافة المنشآت وسط مجالات النخيل مظهر خاص؛ ففي واديي دادس ودرعة تسجل نفس الرشاقة الأنيقة لـ «تيغرمت» وللأبراج المنتصبة بشموخ في كافة الأرجاء أعلى من السطوح، وحتى أكثر المنازل بساطة مجهزة بقباب وأقواس ودرابزين محدثة، وجدران من التراب المدكوك المزدانة بجملة من الحليات والرسوم الهندسية، والتي تخرقها شرافات مطلية بالجير.

إن تقنية البناء هنا تبدو أكثر مهارة ومعمارا من عموم الجنوب والشرق المغربيين، ويدفع ذلك إلى الاعتقاد أننا في حضرة تقاليد فن أصيل محبذ في الزخرفة والتحلية، يصان من طرف « معلمي» قبيلة أيت بو يحيى شمال تيسينت[2].

(1) تدغة: واد ينتمي إلى حوض غريس، وينبع من السفح الجنوبي للأطلس الكبير، ويتجه عموما من الشمال-الغربي إلى الجنوب-الشرقي ليتخذ اسم فريكلة قبل اتصاله بواد غريس، وهو نهر موسمي الجريان إلا في جزئه الأوسط . يخترق الواد في جزئه الأطلسي خوانق ضيقة وعميقة جدا، ثم يتسع مجراه عند خروجه نحو المنخفض الجنوبي للأطلس. انظر محمد أيت حمزة، مادة تدغة، معلمة المغرب، ج 7، ص 2305-2306.

(2) تيسينت: من واحات جبل باني جنوب الأطلس الصغير بين طاطا وفم زكَيد. تشتمل على عدة قصور على ضفتي واد يحمل اسم الواحة. انظر مبارك أوسديد، مادة تيسينت، **معلمة المغرب**، ج 8، ص 2701-2702.



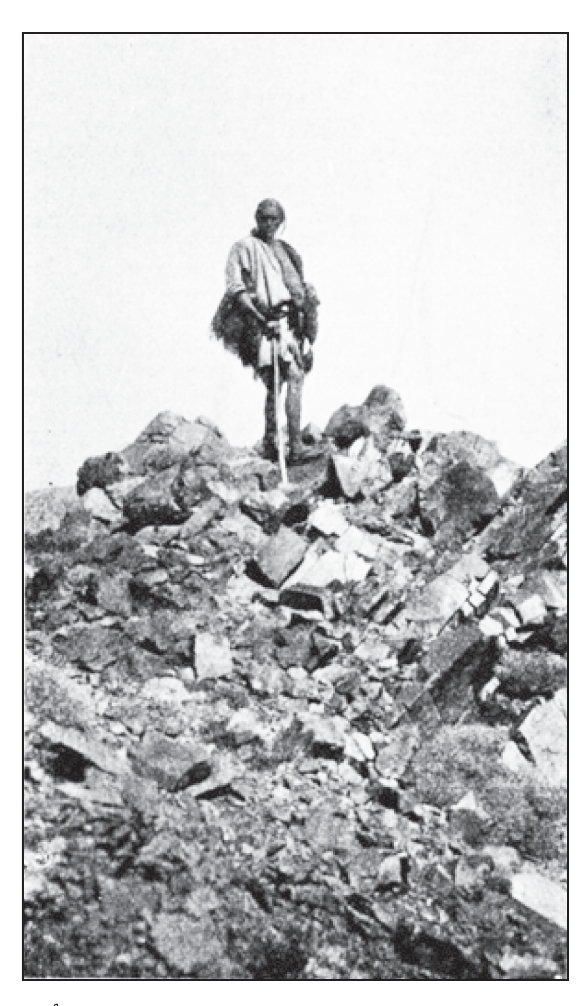
بساتين سكورة (تصوير: Gillot)

إن النظام السياسي لتلك المنطقة شديد التعقيد، ويحمل التنظيم الاجتماعي طابع الثورات السابقة والصراعات اللامتناهية بين المستقرين والبدو، أو بين «الأحرار» و «الحراطين» الذين يشكلون معا فئتين من أهالي درعة مختلفتي الأصول. وفي الوقت الراهن تمارس فرنسا بها مراقبة سياسية وعسكرية قصد إقرار الأمن في النواحي المجاورة، وقد محا الغزو المخزني جزءاً من التنظيم الأمازيغي القائم على الشيوخ المتعارضين دوما، وفي نزاعهم المتواصل؛ غير أنه بالمقدور حدوث حركات تمرد في بعض القبائل التي يبدو أن سلطة شيوخ الأطلس قد سقطت بين أيدي بعض الأعيان الأثرياء والنافذين. ويجب إذن انتظار المزيد من السنوات حتى تكون هاته النواحي المهمة مفتوحة تلقائيا وتماما في وجه السياحة. والآن، ورغم الاحتلال الأخير لتافيلالت[1] لا يمكن الولوج إليها إلا بترخيصات إدارية[2].

(1) تافيلالت: اسم جهة في الجنوب الشرقي يطلق على واحة بين واد غريس وواد زيز، وقد يتوسع الاستعمال ليشمل مجموع منطقة وادي زيز. انظر العربي مزين، مادة تافيلالت، **معلمة المغرب**، ج 7، ص 2082-2083.

(2) المراجع:

Pennès et Spillman, Les pays inaccessibles du Haut Dra, in **Revue de Géographie marocaine**, 1929, n° 1 et 2, p 13 et 31; De Foucauld, **Reconnaissance au Maroc**, p 214 et 215; M.=



دليلنا سنة 1923 بفج تلوات الذي مرت منه حملات السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي سنة 1578[1] صوب الصحراء وتمبوكتو، وفي سنة 1883 اجتازه دو فوكو بتوجيه من أحد اليهود
(تصوير: de Mazières)

=Quedenfelt, **Division et répartition de la population berbère au Maroc**, 1904, traduction H. Simon; A. Martin, **Les Oasis sahariennes**, p 2; R. Montagne, **Villages et Kasbas berbères**, p 11 et 12; Lt. Spillman, Description géographique de la Haute vallér du Dra, in **Revue de Géographie marocaine**, 1930, n° 2, p 52; Rohlfs, **Mein erster Aufenthalt in Marokko**, p 438; P. Picard, **Le Maroc**, 1925, p 150 et suiv.; Volnot, Les Ourika, in **Revue de Géographie marocaine**, 1927, p 173 et suiv.

(1) كانت حملة المنصور على السوادن سنة 1590.

القسم الثاني

ذِكْرَيَاتٌ وَجوَلاتٌ فِي الأطْلسِ

الفصل الأول

مسالك الأطلس الكبير
وجولات في القصبات

طريق مراكش نحو دادس عبر گلاوة، وطريق مراكش نحو تارودانت عبر گندافة، كلتاهما (السفح الشمالي للأطلس الكبير) تم تدشين مسارهما الأول رسميا خلال خريف 1928؛ ولأول مرة سلكت زهاء ثلاثين سيارة في الثامن من نونبر أولى الطريقين التي تم الانتهاء منها بالكاد، طينية وغير مرصفة، من أجل بلوغ نجد تيزي-ن-تيشكا[1] على علو 2.100م؛ وفي ما بعد اليوم الموالي، العاشر من نونبر، طرقت نفس السيارات الطريق الأخرى حتى مسجد تنمل.

أسفرت هاتان الرحلتان عن احتفالات أمازيغية حقيقية، حيث كان فرسان القبائل يحدون المسار، والنساء مزدانات بالحلي، وشكل الشيوخ والأطفال والأفراد الذين لم يتمكنوا من اتخاذ فرس أو بندقية الحاجز عند عبور القرى؛ وفي الغاية كان الحفل منظما من طرف القواد النافذين، أسياد نواحي گلاوة وگندافة، حيث الرقصات والأهازيج، والضيافة العظيمة بالعديد من الأطباق والأطعمة المتنوعة، وركض الفرسان، وزغاريد النساء.

ومنذ ذلك التدشين الرسمي من طرف السيد سطيكَ (Steeg)[2]، المقيم العام حينذاك، محاطا بكافة سلطات الحماية، وبقواد أهالي منطقة الجنوب، ومديري الشبكات الرئيسية الفرنسية (لأن ذلك التدشين تلا تدشين الخط الحديدي الدار البيضاء

(1) تيزي-ن-تيشكا: فج جبلي علوه 2.260م على الطريق الرابطة بين مراكش وورزازات يبلغ طوله زهاء 4 كلم. انظر أحمد هوزالي، مادة تيزي-ن-تيشكا، **معلمة المغرب**، ج 8، ص 2689-2690.

(2) ثيودور سطيكَ (1868-1950): ثاني مقيم عام (1925-1929)، وفي عهده فرضت إدارة الحماية سياستها المطلقة لإخضاع مقاومة الريف، وللمعمرين ورجال الأعمال في استنزاف المغرب دون تحفظ. انظر إبراهيم بوطالب، مادة سطيكَ، **معلمة المغرب**، ج 15، ص 4979-4981.

إلى مراكش)، وإداريا سميت هاته المسالك التي أضحت في الوقت الراهن طرقا بتوسيع مجالها على جزء من مسارها، الأولى بالطريق رقم 502، والثانية بالطريق رقم 501. ومن حسن الحظ فإن التسمية لوحدها تفقد جماليتها.

هاتان الطريقان اللتان تربطان المغرب الأطلنتيكي بالمغرب الأقل معرفة به، والمتخفي خلف الجبال العظيمة، تتواصل حتى تافيلالت وإفني وموريتانيا، لأن تأثير المغرب كان في السابق يمتد حتى النيجر عبر السودان، وخلال أكثر من قرن كانت الصلاة تقام بتمبوكتو باسم السلاطين المغاربة.

هاتان الطريقان هما طريق مراكش عبر الأطلس الكبير إلى دادس ودرعة وتافيلالت والصحراء وتمبوكتو وسوس ... مسالك جبلية شاقة وملتوية، ومعابر غير معلومة في الرمال، تتبعها الغزاة مرابطو السودان القصية عبر بلاد گلاوة، وموحدو سوس الأقرب، والسعديون عبر گندافة. إنها الطرق التي سلكتها القوافل التي كان يبعث بها السلاطين بحثا عن العبيد والملح والذهب على ضفاف النيجر، وعلى امتدادها تحيل مقابر « البارود»[1] على المعارك الضارية التي التحموا فيها. إنها طرق تاريخية محروسة بالقصبات في الفجاج، وبتقاطعات المسالك في الأودية، وعند التقائها بمسارات أخرى.

(1) الحروب (المؤلفان).



مسلك على علو 2.000م في أبريل، بتيزي-ن-شيكر[1]، بين أشجار التويا قبالة كتلة تيف نوت
(تصوير: de Mazières)

إلى هاتين الطريقين، كان فرانسوا بيرجي (F. Berger)[2]، الملاحظ اللبيب، والسارد المصور والمتقطع مع ذلك، والذي أنجز عنهما رواية سريعة، يرغب في أن تترك لهما تسمية «طريق تمبوكتو» و «طريق تارودانت».

مسالك الجبل لمراكش عبر الأطلس وعلى السفح الجنوبي التي تعاركت فيها الفرق الغازية للسودان وسوس، وتلك التي طرقتها القوافل والحَرْكات المظفرة للسلطان مولاي الحسن، هي ذاتها التي اجتازها لاحقا مكتشفونا المغاربة، شارل دو فوكو ور. دو سيگونزاك ولوي جونتيل وإدمون دوتي وبريف. وكمجرد سياح توجهنا بأنفسنا للمرة الأولى سنة 1920 إلى نواحي تنمل وگندافة، وتلوات ببلاد گلاوة، وحديثا إلى ضفاف دادس ودرعة.

(1) تيزي-ن-شيكر: ممر بالأطلس الكبير الشمالي يربط بين واديي تدرارت وأكركير على علو 2.500م بمحيط موقع ستي فاطمة على واد أوريكة.

(2) رئيس تحرير الصحيفة الأسبوعية بمراكش « الأطلس « (المؤلفان).

كانت مراكش على الدوام المركز الأعظم لعوامل الجذب السياسي أو السلالي أو الاقتصادي لساكنة الجنوب وأمازيغ الجبل، مثلما لسكان ما وراء الأطلس الكبير؛ وبسبب ارتفاعه الشاهق قياسا بعرضه الضئيل، حافظ الأطلس الكبير على مشاق عظيمة لمرور القوافل والبضائع، وللقوات المحاربة، وكانت الاتصالات تتم عبر المسالك الحلزونية وشديدة الصعوبة غالبا، والتي بمنافذ الوديان في السهل وبالأجراف العالية يتم بلوغ أسافل سلسلة الأطلس الكبير، وممرات ينيف امتدادها عن 2.500 م من الشرق إلى الغرب؛ وهي على التوالي: تيزي-ن-تلوات[1]، وتيزي-ن-تيشكا، وتيزي تيفوار[2]، وتيزي ويشدن[3]، وتيزي-ن-تاست[4]، وإيمي-ن-تانوت[5].

يتجه المسلك على الجوانب الشاهقة للوادي بعد العديد من المعابر الجافة في الواد المحصور الذي تندر فيه الجسور المعلقة من الخشب والأغصان، والتي تتجاهلها بهائم النقل. إنها تتشبث بالنتوءات الصخرية وبالمنحدرات الشاقة للقمم، مرسومة بفضل المرور المعتاد للأفراد وبهائمهم من أجل بلوغ الممر الذي يصبح صعب الاقتحام تحت ثلوج الشتاء. ومع هذا، فإن تاريخ المغرب مليء بالاكتساحات المتتالية التي اخترقت الأطلس الكبير.

كانت المعابر الرئيسية، بدءا بالأهم، ممر تلوات على علو 2.600م الذي تخلت عنه الطريق الراهنة لتتسلق تيزي-ن-تيشكا الأقل ارتفاعا (2.100م)، مطروقا من طرف أهالي واد دادس وتافيلالت ودرعة والسودان؛ وإلى الشرق منه كان تيزي-ن-تاست يستغل في التواصل مع سوس.

* * *

(1) تيزي-ن-تلوات: الشهير في الكتابات التاريخية بثنية الكَلاوي، ممر جبلي على طريق مراكش-ورزازات، على بعد 80 كلم من ممر تيزي-ن-تشكا، وعلى ارتفاع 2.600م. انظر عبد القادر بوراس، مادة تيزي-ن-تلوات، **معلمة المغرب**، ج 8، ص 2688-2689

(2) قد يكون القصد به ممر تافريات الواقع على الضفة الشمالية لواد زات على بعد نحو 6 كلم من أيت أورير شرقا.

(3) التسمية السابقة لتزي-ن-تاست.

(4) تيزي-ن-تاست: ممر جبلي وقرية على الطريق الرابطة بين مراكش وتارودانت، على بعد 134 كلم من الأولى.

(5) إيمي-ن-تانوت: بلدة من بلدات دير الأطلس الكبير الغربي، على بعد 120 كلم جنوب مراكش باتجاه أكَادير، تقع على ضفة واد يحمل ذات التسمية انظر أحمد بلاوي، مادة إيمي-ن-تانوت، **معلمة المغرب**، ج 3، ص 936-939.

القصبة، مسكن الشيخ، هي في الغالب الأعم – كما أشرنا إلى ذلك في فصل سابق – في شكل بلدة يقطن بها حول الأسرة الخدم والحرس، وفي الوقت ذاته تحمي بأسوارها أو داخل أسوارها قرية من التجار والمزارعين، وهي أيضا محطة استراحة للقوافل. وكمراكز متقدمة صوب البلاد غير الخاضعة، غالبا ما كانت للقصبات حامية دائمة من الرجال المسلحين تحت إمرة القائد.

ولزيارة قصبات الأطلس الكبير تلك، سنتتبع المسالك التي توجهنا إليها عبرها منذ سنوات خلت على ظهور البغال. إن تخطيط الطرق الحديثة قد ظل بالفعل هو ذاته تقريبا، والقصبات الرئيسية قائمة على مسارها؛ وبالنسبة لغيرها سيكون على السائح ارتياد المسالك المتصلة بالطرق.



قصبة أيت أورير عند مدخل جبل گلاوة (تصوير: de Mazières)

- في بلاد گلاوة

گلاوة أمازيغ برابرة اللسان والعرق، أصولهم من ورزازات، أسياد معابر مراكش باتجاه درعة والسودان بواسطة قصبتي تلوات وورزازات، وسلطتهم نافذة حتى تخوم تافيلالت؛ وتلوات هي إقطاعهم العائلي، إنها المقر الراهن للقائد السي حمو الگلاوي[1] الذي يوجد ابنا أخيه، بورزازات السي حمادي[2]، وبمراكش الباشا التهامي الگلاوي. يحكم الگلاويون عموم قصبات السفحين الشمالي والجنوبي في مجال متصل بنفوذهم، منتصبة كمحارس على طول المسارات التي تجوب الأطلس الكبير.

على السفح الجنوبي لممر تلوات هناك القلعة القديمة لأيت الگلاوي، وهي حصن شاهق وضيق ذو أربعة أبراج، محاط بأشجار جوز عتيقة، ودوره على طريق الجنوب في سفح الممر هو حراسة وابتزاز القوافل، أي أداء الجباية هن حراسة الطريق؛ ويتقدم تاوريرت-ن-إيماگّرن (تل اللصوص) نجد تلوات.

* * *

يتوفر مسلك تيزي-ن-تلوات الذي سلكناه مرات عديدة على غرار الشلوح، راجلين أو على ظهر البغال، على منفذين في سهل مراكش تشرف عليهما قصبتان بأيت

(1) حمو الگلاوي (1876-1937): ابن محمد ابيبض من زوجة من أشراف قبيلة أهل ورزازات مما أهله ليرتقي إلى منزلة عمه القائد المدني وهو في ريعان شبابه، وزاد حظوة بمصاهرته مع مولاي عبد الحفيظ الذي اقترن بأخته من أمه (1910)، فكان له الإشراف انطلاقا من تلوات على عموم قبائل الجنوب من أعلى الأطلس الكبير إلى تودغى شرقا ودرعة جنوبا. وتميز بعد وفاة القائد المدني برفضه دخول القوات الفرنسية إلى مجال قيادته معارضا لعمه التهامي، الأمر الذي سيتسبب له في متاعب كثيرة تواصلت إلى حين وفاته. انظر محمد أوجامع، مادة الأگلاوي حمو، **معلمة المغرب**، ج 2، ص 621

(2) حمادي الگلاوي (تـ 1954): أخ لحمو، عين خليفة له على قصبة ورزازات وأحوازها (1923-1937)، قبل أن يصير خليفة للباشا التهامي في قيادة جنوبي الأطلس الكبير. انظر نفس المرجع والصفحة.

أورير على واد الزات[1] وبسيدي رحال[2]، الزاوية المنتصبة في مخرج واد ردات، مع قصبة أعلى بقليل هي قصبة سيدي المدني[3].

في سهل مراكش عند منفذ طريق الأطلس أيت أورير[4]، مجمع للمباني المحصنة خشنة التشييد بالطوب الطيني الأحمر من طرف السي المدني الگلاوي. وعلى مقربة من القصبة القديمة المكللة بالشرافات البيضاء بنايتان حديثتان أخريتان، إحداهما بدورها على طراز القصبات قلعة مربعة دون منفذ باستثناء السقيفة مع فناء داخلي محاط بالأقواس التي تنفتح أسفلها حجرات فسيحة، ويتضمن الطابق الأول أروقة على الصحن، وسطحا مطلا على الخارج.

كانت تنجز بها الأشغال حينما استقبلنا بها خليفة الباشا سنة 1923 مقدما لنا وجبة أتاحت لنا تحمل وعثاء طول المرحلة التي كان علينا اجتيازها بعد الزوال حتى زرقطن[5]؛ وقد افتتحت الوليمة – ونتذكرها أكثر باشتهاء العيون مثلما بطعمها – بقطع

---

(1) واد الزات: واد جبلي من روافد تانسيفت، ينبع من السفح الشمالي للأطلس الكبير المراكشي، ويتميز واديه بانفراجه وعلوه من الخوانق العميقة. يبلغ طول مجراه الرئيسي في حوضه الجبلي 50 كلم، ومساحة حوضه 496 كلم²، ومعدل ارتفاعه 2.000م، ويتجه اتجاها جنوبيا-غربيا، ثم ينحرف عند خروجه إلى السها في اتجاه غربي-شمالي-غربي، وبعد 8 كلم ينقسم إلى فرعين، أحدهما رئيسي شمالي يتصل بوادي أوريكة المعروف في سهل الحوز بواد أغمات بعد 12 كلم، ويتصل به الفرع الثاني قبل 4 كلم، ويسمى واد الزات (الحجارة بالأمازيغية). انظر أحمد هوزلي، مادة الزات، **معلمة المغرب**، ج 14، ص 4592-4597.

(2) سيدي رحال: يسمى أيضا أنماي، ويقع على الضفة اليمنى لمخروط واد أغمات، وينتمي إلى مجال قلعة السراغنة ضمن أراضي قبيلة زمران على الطريق الرابطة بين مراكش ودمنات، ويبعد عن الأولى بـ 50 كلم نحو الشرق بمحاذاة الحاشية الشمالية للأطلس الكبير على امتداد سهل الحوز الشرقي. انظر محمد الأگلع، مادة سيدي رحال، **معلمة المغرب**، ج 5، ص 5210.

(3) قصبة سيدي المدني: قصبة بأراضي قبيلة أيت يحيى-ن إيعدوان من اتحادية أيت يافلمان بوادي تدغة على السفح الشمالي للأطلس الكبير حوالي جبل العياشي إلى الجنوب-الغربي من مركز ميدلت. انظر:

Michaël Peyron, Contribution à l'histoire du Haut-Atlas oriental – Les Ayt Yafelman, in **Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée**, vol 38, Année 1984, pp 117-135.

(4) أيت أورير: بلدة صغيرة في السفح الشمالي للأطلس الكبير الغربي، على بعد 34 كلم من مراكش باتجاه الجنوب الشرقي، على الطريق الرابطة بين هذه الأخيرة وورزازات، وتقع على الضفة اليمنى لوادي الزات، والمعروف بتسمية إيمي-ن-الزات؛ وهي بلدة ظهرت بهذا الاسم في مطلع القرن 20 مع تشييد قصبة قايدية بها على يد المدني الگلاوي، وأضحت بعد 1912 مركزا لدائرة عسكرية. انظر أحمد بلادي، مادة أيت أورير، **معلمة المغرب**، ج 3، ص 892-893.

(5) أحد زرقطن: قرية جبلية صغيرة بدائرة توامة ناحية حوز مراكش.

حمراء عظيمة من البطيخ مكللة بثمرات التين الهندي البهية بلون الذهب، تلتها أطباق من الكسكس نصبت فيه على أعواد رقيقة بيض طازج كان بمثابة أزهار بيضاء.

والمبنى الآخر الذي كان في طور الإنجاز منعزل شيئا ما لحسن الحظ؛ إنه منزل على الطراز الأوربي، وبوسائل الراحة الحديثة، منتصب في سفح الأطلس الكبير على مقربة من تلك القرية الأمازيغية؛ إنه إحدى الإقامات الصيفية للباشا.

* * *

إن التقاء المسلكين عند أقدام أربعة أقواس خربة لجسر قديم من الحجارة شيد من طرف المسيحيين في عهد السلطان الأكحل[1] – بحسب ش. دو فوكو – بسفح قصبة أغبالو[2] المذهلة المنتصبة فوق الوادي، ولكنها ذات الجدران الصماء الباعثة عن الغرابة والأسى، يقال إنها سجن سياسي شيد من طرف باشا مراكش.

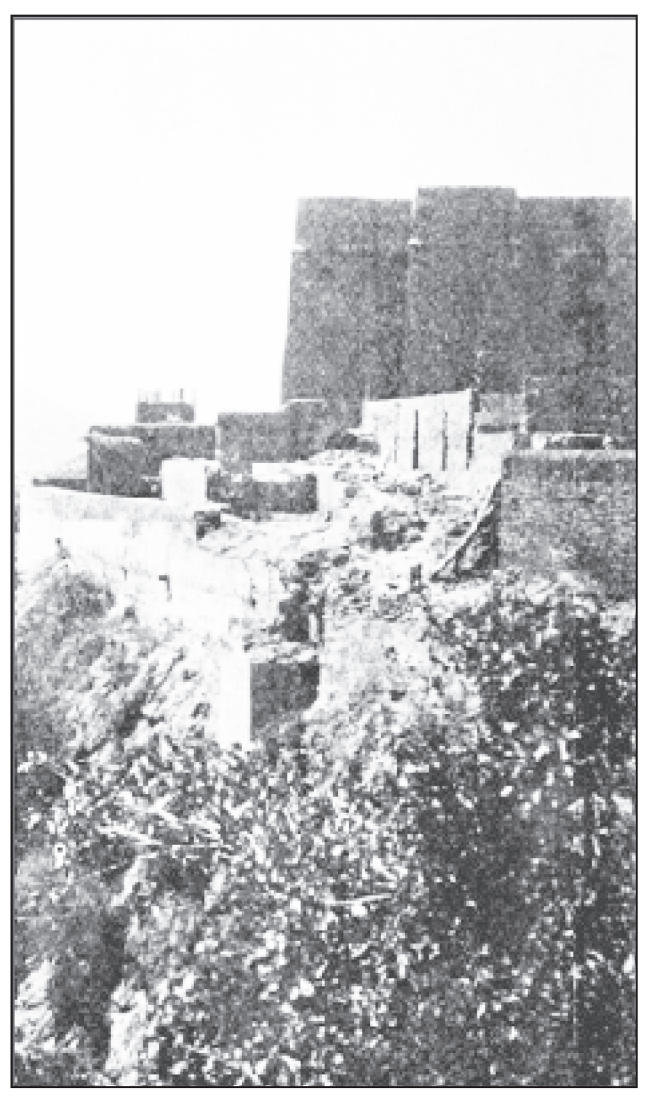
بمجراه يرسم واد ردات[3] في انكسار لاقتحام الأطلس الكبير عند منحدر كَلاوة المهم الذي يشمل الممرات الثلاثة تلوات وتيشكا وتامانات. وليس هناك من وصف أفضل لهذا المشهد الثابت للجبل إلا ما قام به شارل دو فوكو في سرد رحلته سنة 1883: «من سيدي رحال إلى نواحي زرقطن يبرز الوادي المظهر ذاته، وليس للعمق أبدا أكثر من 100 م عرضا، والجانبان من شجيرات المنحدرات، وأحيانا هنالك سويرات صخرية حتى الأسفل... وهي في أغلب الأوقات شديدة الانحدار ومغطاة بالأشجار حيث جوانبها أقل مفاجئة، وتصادف فيها قرى، وفي سفوحها مزارع ومغارس. ترتصف القرى طولا مكونة تجمعات عديدة متدرجة في قعر الوادي، والمغارس أسفل المدرجات. وتدعم سويرات صغيرة التربة المزروعة بالشعير والذرة وبأشجار التين والرمان والزيتون والعنب، تظللها جملة من أشجار الجوز».

---

(1) يقصد به أبو الحسن المريني (1331-1351م).

(2) قصبة أغبالو: قصبة جبلية صغيرة تقع على بعد 47 كلم عن مراكش على الطريق الرابطة بين هذه الأخيرة وأوريكة باتجاه جبل أوكايمدن.

(3) واد ردات: ينطبق الوصف هنا على المجرى المسمى في الخريطة الطبوغرافية واد تيشكا، الذي لا يعتمده المؤلفان في مجمل الكتاب. وهو عبارة عن منابع تشكل المجاري العليا لوديان نفيس وسكساوة والمالح وأسيف المال وسوس. انظر أحمد هوزلي، مادة تيزي-ن-تيشكا، **معلمة المغرب**، ص 2689-2690.



قصبة أغبالو بجدرانها الصماء، مشرفة على منحدر واد ردات (تصوير: de Mazières)

يتسلق المسلك لتجنب الفجاج الضيقة لواد ردات[1] وينحدر عند ملتقى سيول إيري (Iri) وإفرادن (Ifraden) أيت ربوة[2] بردات بالقرب من القصبة السمراء لزرقطن، المختفية جزئيا بأشجار الحور المنتصبة، حارسة المسالك التي تدنو منها قادمة

(1) لا نعثر في الخرائط الطبوغرافية الراهنة إلا على واد يحمل اسم تيشكا.

(2) لعلها قبيلة أيت ربوة موسى.

من الأودية العالية. يتصل مسلك أيت أورير بدوره بواد ردات فوق مستوى زرقطن.

* * *

في قعر الوادي، ملتقى للمسيلات الثلاثة المذكورة النازلة من أعالي الجبال متجمعة بالتسمية الموحدة لواد إفرادن، تنتصب قصبة زرقطن مربعة، ومجانبة في كل واجهتها بأبراج من التراب المدكوك شديد الحمرة؛ إنها بناية شديدة التداعي وسط نباتات مورقة، يتم بلوغها عبر طريق محفورة محاطة بأزهار الدفلى والعسلة والعليق وأشجار الحور الشامخة.

بمجرد وصولنا كان الظلام الحالك بعمق الجبال، وقد سايرت بغالنا الأكثر أمانا من مرشدينا ومن دون عقبات المنحدرات الصخرية والمنزلقة النازلة من أغبالو، القصبة ذات الجدران المخيفة؛ وحولنا في الحلكة، وعند أقدامنا شعرنا بالماء الذي كان من تحت قوائم البهائم يتدفق على وجوهنا، غير أننا صممنا العزم، لأن كل شيء كان يدرك من بعيد ببلاد الشلوح. كان أحد الخدم هناك بالشعاع الخافت لفانوسه، فتوغلنا في المسلك المحفور الذي زاد من حجم الظلمة جراء النباتات التي تحده، والمليء بماء جار لأنه كان يستعمل أيضا كقناة للسقي. قادنا إلى عتبة القصبة التي كان بها فانوس ثان يهتز من أجل توجيهنا إلى السقيفة وبابها الخشبي العتيق.

القصبة خشنة إلى حد ما، لكنها ذات عتاقة جميلة بإطارها النباتي المخضر، وأشجارها الضخمة، ومائها الجاري، كإطار تزييني ريفي مفعم بالشاعرية. من الطريق الحالية ترى في الأسفل منكمشة ومسحوقة، وفاقدة لطابعها الرومانسي. ولم يعرف سيدها، الشيخ المحبوب، كيف يعبر لنا عن ترحيبه إلا بتكرار تقديم جرار الزبدة والعسل والبيض.

من زرقطن، وبعد قرية للجبليين اليهود، يتبع المسلك وادي ردات، ويتسلق الذروات، الكتل الوعرة والمغروسة بأشجار العرعر حتى القمة التي يتراوح ارتفاعها من 1.600 إلى 1.800م، والتي تبرز فيها أشجار التويا، فيتجه نحو خط السقف المفعم بالثلوج، والذي يربط شرقا أدرار-ن-إيري[1] وغربا جبل ياغور[2]، المقطوع بفجي تلوات وتيشكا؛ ثم يتشبث المسلك بركام من الصخور المتداعية جراء الصقيع، فتنعدم القرى والمزروعات، فلا أشجار ولا أعشاب، ووحدها صخور الحث والحجارة ما تسود آنذاك كموقع أجرد حتى فج تلوات على ارتفاع 2.034م، وحيث يمتد البصر حتى الأفق على الجنوب، مع نجد تلوات عند السفح.

في العمق تعرف جبال أكثر انخفاضا تدرجا واحدا تلو الآخر بسحنتها المصفرة أو السمراء الداكنة: «الكل أجرد، والكل جاف، والكل صخري» حسبما كتب ش. دو فوكو؛ لكنه عند نزول الفج سرعان ما تظهر القصبة العظيمة، مقام قواد گلاوة الذين بأسلوبهم يديرون ويسيرون معبر الجنوب.

وعلى عكس السفح الشمالي، يهوى نظيره الجنوبي مباشرة على ذلك النجد المرتفع المقفر الذي ينبسط صوب سهل دادس والأطلس الصغير؛ وفي سفح الحافة شديدة الانحدار تتراكم التلال الأولى حول القصبات السمراء، والتي من هنا، مثل زرقطن وأغبالو، هي حارسة المسلك. وفي مركز النجد على المعبر الإجباري تبرز قصبة تلوات، القلعة المشيدة بالحجارة والطين والتراب المدكوك، وقريتيها المفصولتين بأخدود صغير. إنها تشرف على الطريق التجارية للجنوب صوب مراكش من أجل مبادلات التمور وملح درعة والسودان لقاء المنتوجات المصنعة الموجودة على الساحل الأطلنتيكي.

(1) أدرار-ن-إيري: مرتفع وسط الأطلس الكبير الغربي يجري فيه واد بنفس التسمية، أبرز تجمعاته البشرية حسب ش. دو فوكو هي تاگموت الواقعة على بعد نحو 40 كلم إلى شرق-الجنوب-الشرقي لبلدة بويزكارن.

(2) جبل ياغور: من ضمن مرتفعات الأطلس الكبير المراكشي بمنطقة الحوز بمحيط دوار ورزات وعلى مقربة من منابع واد الزات، بين أيت إنزال الجبل وأيت واكستيت؛ اشتهر بنقوشه الصخرية الموغلة في القدم، أبرزها لوحة الشمس ولوحة القمر.



قصبة شيخ زرقطن المشرفة على الطرق النازلة من تيزي تلوات وتيزي-ن-تشكا تتوسط منظرا من الأشجار العظيمة وورود الدفلى (تصوير: de Mazières)

* * *

تلوات هي «دار الگلاوي» على علو 1.822 م، ومعقل الأسرة الكبيرة للقواد الگلاويين؛ وتنتصب كقلعة معزولة ومتينة في قلب ذلك النجد القاحل المنبسط عند السفح الجنوبي للأطلس باتجاه واحات دادس ودرعة. والقصبة على بعد مسيرة ثلاثة أيام من مراكش على ملتقى المسالك المتجهة نحو دادس وتافيلالت وورزازات وأعالي سوس والسودان؛ وكانت، وقد لا تزال اليوم، محطة إجبارية للقوافل. هنا، تتخذ القصبة

مظهر حصن أكثر من أي موقع آخر، ولاسيما في أودية أونيلا[1] ودادس ودرعة التي يتمثل فيها الرسم الهندسي زيادة في الزخارف الخارجية للجدران. يحيط سور حزام بتلك القلعة، لأنها بلدة صغيرة بداخل الأسوار.

في هذه البلدة ذات المجمع المعقد تتجانب المباني داخل سلسلة من الأحزمة المكثفة، ولا تبدو مترابطة بين بعضها البعض إلا بدهاليز مقباة تبصم مختلف فترات البناء، والاحتياجات الدفاعية لإحدى المراحل. لا يمكن أن يوجد بها طراز معماري، ولا تصميم إجمالي. تكلل هذه الكتلة السمراء ذات البرجين المتينين وبدون نظام فتحات تنقطع في السماء على هيئة تشبيك أبيض، ووحدها البناية التي بعلوها فوق سور الحزام ترى الأطلس من جهة الشمال، متسمة بمظهر إقامة هادئة للسكن لو لم تنغلق – على غرار الأخريات – داخل حزام الأسوار. إن الخطر يأتي بالفعل من الجنوب، وذلك الخطر حقيقي، ولذا كانت أجزاء القصبة بمثابة بنايات حقيقية محصنة.

وهنا وصف للأماكن: باب رئيسية محروسة برجال حامية القائد حمو الكَلاوي، ثم دهليز مقبى، وصحن أول يشبه سوقا بأكشاك محاطة بالجدران، ثم دهليز مقبى ذو انعطافة، وصحن ثان، إنها المضافة ذات الحجرات المتراكبة على الجانبين، والتي يستريح فيها العابرون ليلا، جماعة في غرف الصحن، أو فرادى وبمعية أسرهم في الطابق العلوي.

وعقب ذلك دهليز مقبى أكثر عتمة ذو انعطافات، حيث يتم بلوغ صحن صغير داخلي تقع فيه حجرات الضيوف المرموقين المدعووين، وبها كان مقامنا. وبين الصحنين الأولين حشد متحرك وصاخب ذهابا وإيابا، جبليون، ورحل الجنوب نساء ورجالا، وعبيد سود منشغلون على الدوام، وأكباش، وبغال، وأحصنة، إنها نزالة القوافل. ترتاح فيها القافلة، وتقايض فيها بضائع بأخرى، بل وتجد نفسها معتقلة زمن الثلوج الذي يجعل الفجاج عسيرة على الجواز، أو حينما تبلل الأمطار المسالك الطينية. يسهر القائد على ذلك العالم، ويجبي حق الإقامة، ورسوم المرور عن الملاذ الذي يوفره، والأمن الذي يضمنه.

---

(1) واد أونيلا: من الروافد الأساسية لواد درعة، ويمتد من انفركال على بعد 8 كلم من جبل توبقال، وينحدر صوب دوار تغزى مرورا بدوار اغريس في اتجاه ورزازات، ويمتاز بوفرة مياهه على مدار السنة.



قصبة تلوات (تصوير: Gillot)

كافة هياكل البنايات مستقلة عن مركز القصبة، الإقامة الشخصية للقائد وخدمه المتعدد؛ والبنايات المفتوحة على الصحن الأول هي من الطابية الحمراء مكللة بفتحات تبدو ببياضها الجيري مشيدة بالأحرى للاستعراض[1]. ومن الصحن الثاني تظهر بناية مشيدة بالحجارة قبالة الجنوب، أي في طريق العدو، وهي شاهقة وذات أقباء في زواياها؛ وذروة ذلك المبنى مزودة بشرافات من الحجر مكونة فتحات ذات ميازيب، وعلى جانبي الأقباء مرامي الخفر المشرعة في الأسفل للسماح بإلقاء المقذوفات الصلبة والسائلة، وترى الشرفات على جدران القسم الرئيسي من المبنى.

ويبدو أن الأقباء ذات ثلاثة طوابق حسبما تبديه الفتحات في الجدران، والمبنى الأوسط يتكون من قنطرتين مرتفعتين شبيهة بقناطر جسورنا المتحركة، متوجة بشرفات. كان هذا الحصن احتمالا ملجأ البلدة، وقصبة تلوات بذلك جهاز عسكري متكامل يقوده في الوقت الراهن السي حمو الگلاوي.

(1) لقصبات السفح الجنوبي للأطلس الكبير شبه غريب بتجمعات صحراء ليبيا التي تتسم فيها المنازل بالطين الأحمر، مع أبراج ذات جذوع هرمية تختتمها أربعة رؤوس بيضاء مطلية بالجير. (المؤلفان).

قمنا بزيارتها في مناسبتين، الأولى يوم العيد الكبير، وكانت في وضعية احتفال. في المساء وليلا كانت صحونها عامرة بالراقصات الأمازيغيات، ساعدا إلى ساعد في صف واحد، متقدمات ومتراجعات بخطى صغيرة تبعا للوتيرة البطيئة للدفوف التي كان ينقر عليها خمسة ذكور أو ستة بأنغام مكرورة، وبإنشاد حزين لنحو خمسين امرأة يصفقن معا بأيديهن. ووجب أن يكون لقرية تلوات حي للإيشيرات[1] (من أين قدمن بعدد هائل مثل ذاك؟) لمتعة القائد، ولجذب القوافل. وبالفعل كان الأفراد كثر حوالي الراقصات، فهناك من يوجدن في الصحن، وهناك من يوجدن على الشرفات الترابية الصغيرة، وقبالة حجرات ضيوف العبور.

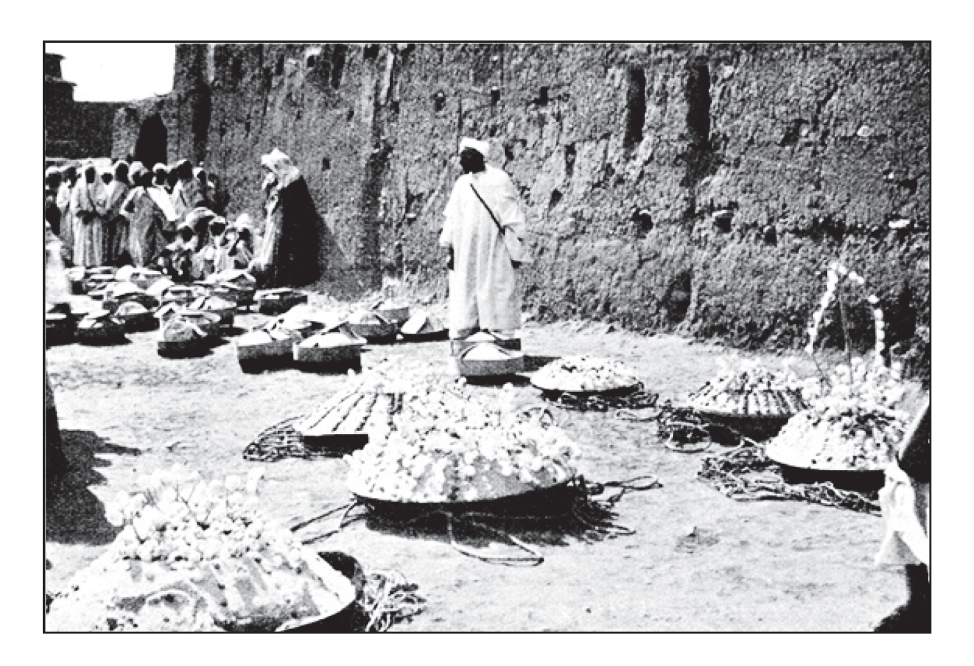
ينفرط صف الراقصات، وتوجد آنذاك مجموعتان من النساء المصطفات والمتقابلات، ثم ينخرط الراقصون الشلوح في الحفل، شبان يافعون يشوبهم الغموض، وعلى قدر النساء يجذبون رغبات أولئك الجبليين؛ وفي وسط إحدى المجموعات المنغلقة في دائرة يمارس المهرج رقصات جامحة مرفقة بإيماءات شاذة. يرخي قنديل كهربائي ضخم فوق الصحن شعاعا قويا على ذلك المشهد النابع من زمن آخر.

في اليوم الموالي كرمنا القائد بزيارة منزله وبستانه الداخلي الذي يجله، وصالته المؤثثة على الطريقة الأوربية، والتي توجد بها آلة بيانو نصف ذيلية. ولمن سلك في تلك الفترة المسالك المنقورة في الصخر، السريعة والمغطاة بالحجارة المتحركة تحت الخطى، يبدو من الاستحالة نقل آلة بيانو ومحرك الكهرباء إلى تلوات؛ إنها حركة مبهرة لا يمكن تفسيرها إلا بالمجهود الشاق للمحكومين الكثر، أشباه العبيد، الخاضعين لشراسة قائد.

في السنة الموالية بلغنا تلوات تحت عاصفة هائلة من المطر والرعود والرياح؛ لقد توقفت بغالنا تماما، وكانت ترتعد تحت قوائمها. ومعرقلة من كل ناحية تنصب القصبة ملمحا أسود يظهر في بعض الأحيان حينما ينير الرعد السماء، ولم تكن القصبة تلك المرة في احتفال، وكان القائد يعد حركته للتوجه في حرب صوب الشرق.

(1) منطوق من اللهجة المغربية الحضرية، تعني الصبايا اليافعات.

أخليت الصحون إلا من حول حوانيت التغذية، ولكن فوق السطوح المقفلة – حتى لا يكون هناك أي مفر – عمد الرجال الأصحاء إلى تلميع «مكاحلهم» أو بنادقهم العصرية. سوف تنطلق الحرْكة في الغد، والعدو الكامن جهة الشرق يتسم بالشراسة. كان الكل ملبيا النداء، ولن تفتح الأبواب إلا عند الانطلاقة مع انبلاج الصبح؛ وفي هذه المرة كان القائد غير مرئي لنا، وكان خليفته المنهمك يرحب بنا في حجرة الضيوف.



ضيافة أمازيغية، سلسلة الأطباق (تصوير: Gillot)

قبالة القلعة، من جانب أخدود آخر، ترى الإقامة البيضاء تماما كمنزل ريفي للسي محمد، وليس لها مظهر حربي، إنها بالأحرى منزل لجبلي ثري بأروقة مفتوحة على السطوح.

وقرية تلوات خارج القصبة هي قرية فلاحين، أي مزارعون يعملون لفائدة القائد. تنساب جداول عديدة من أعالي الأطلس، وتخصب الأرض التي تتخذ حتى الصيف بساطا أخضر بهيجا.

* * *

تم الحدث الأهم في تاريخ قصبات الأطلس الكبير يوم 16 نونبر 1931، إذ قدم السلطان سيدي محمد بالسيارة إلى تلوات حيث أقيم له استقبال عظيم من طرف باشا مراكش السي التهامي والقائد السي حمو، تلته ضيافة فخمة. وبانطلاقته في الصباح من مراكش وصل الموكب الإمبراطوري في الساعة 11 إلى القصبة، وكان في العودة عند الساعة 19 إلى مراكش. ويجب الرجوع بعيدا إلى زمن مولاي إسماعيل، أو بصورة أقرب إلينا مع مولاي الحسن لمعاينة عبور سلطان للأطلس الكبير. وعلاوة على ذلك، كان أول من تكيف مع الوسائل العصرية، واجتاز فج تيشكا بالسيارة، وهذا حدث تاريخي.

* * *

انطلاقا من تلوات، تتباين المسالك شرقا باتجاه ناحيتي دادس وفركَلة[1]، وجنوبا صوب واحات تيكيرت[2] وورزازات وسكورة[3]، وهذا المسلك الأخير يساير مجرى واد المالح عبر أيت بن حدو[4].

وادي أونيلا

على بعد ساعتين سيرا على البغال باتجاه الشرق، ومواكبة لواد أماسين[5] عبر طريق مغطاة في واد موحش، بل سريرا لفيض جاف ذي جدران سمراء تنسكب فيه خطوط ملح بيضاء، يتم الوصول إلى وادي أونيلا، أحد روافد دادس. وبمبارحة ذلك المعبر المروع ترى على ميمنته كاستمرار لأخدود محصور حيث يمر الواد ببعض تيغرمت التي تطبع الطريق باتجاه الجنوب.

(1) فركلة: ناحية تقع على السفوح الجنوبية الشرقية للأطلس الكبير إلى الجنوب الغربي من مدينة الرشيدية.

(2) تيكيرت، قرية وصفها المختار السوسي بكونها واحة معروفة من تاماسين بين أيت واوزكَيت وقبائل كَلاوة، اشتهرت زاويتها بالتدريس. انظر، المختار السوسي، **المعسول**، ج 16، الدار البيضاء 1960، ص 16.

(3) سكورة: ناحية تبعد عن ورزازات باتجاه الشمال الشرقي بـ 40 كلم باتجاه قلعة مكَونة، وهي واحة تقع إلى الجنوب الشرقي منها، وتمتد على طول ثلاثة أودية رئيسية: واد دادس وواد الحجاج وواد إمدري.

(4) أيت بنحدو: قصر على ضفاف واد المالح، وهو عبارة عن تجمع بنايات تقليدية بإقليم ورزازات، شيدت بالطين ومحاطة بسور دفاعي مقوى بالأبراج، وبهندسته المتميزة الأمر الذي أهلع ليدرج ضمن قائمة اليونسكو لمواقع التراث الإنساني العالمي.

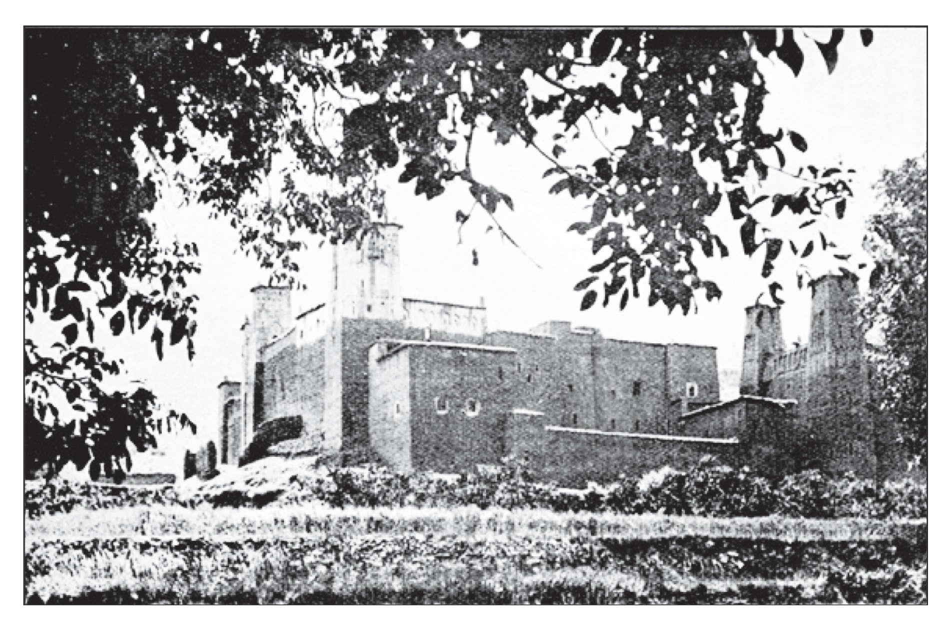
(5) واد أماسين: مسيل ينبع من الأطلس الكبير الغربي، وينحدر على الواجهة الجنوبية باتجاه شمال-غرب صوب الجنوب-الشرقي مرورا بقرية تحمل نفس التسمية على بعد نحو 40 كلم إلى الشمال-الغربي من قصبة أيت بنحدو، ويواصل توجهه الجنوب-الشرقي ليكون رافدا لواد تيديلي الذي يصب بدوره في واد ورزازات.

يكون وادي أونيلا التباين الأكثر شبها بالناحية المقفرة لنجد تلوات، وهناك، تتشكل سلسلة من القرى المكونة فقط من القصبات، أو بالأحرى من تيغرمت ذات السطوح التلقائية، والأبراج المفوهة والمفعمة بالرسوم، وخصوصا أنيميتر[1] التي عرفت بها ريشة جاك ماجوريل، وأونيلا حيث يتخذ الواد - الذي يعكس أشجار الجوز - ملمحا أزرق رائعا.

غير أن المخزني الذي خصنا به قائد تلوات مرشدا، دفعنا إلى نهج مسار نتوء صخري أجرد وجب تجاوزه إلى ضفاف الوديان، وبذلك وقع بصرنا على المنظر غير المتوقع على الإطلاق على الضفة الأخرى لأونيلا: باقة من أشجار الجوز والزيتون الخضراء فوق الضفاف المرتفعة للواد، تشرف عليها بريجات مفوهة لقصبات صغيرة عديدة ملتئمة في إطار قرية. إنه شيء جميل حقا بعد المنطقة القاحلة التي اجتزناها، كان أروع على ما يبدو من أن يكون حقيقة. فوق المغارس العديدة توجد نحو دزينة من القصبات السمراء الصغيرة مزخرفة بزخارف نافرة شديدة الانتظام، تشكل في مظهرها الأول ما يشبه جملة من قصور الورق المقوى بمقياس مضخم لألعاب الأطفال. قرية القصبة تلك هي أنيميتر، والقصبة المشرفة هي قصبة الشيخ.

لتلك القصبات نفس المظهر، وتقريبا نفس زخرفة القصبات الصغيرة التي صادفناها بسكورة بالقرب من واد دادس. إنها من التراب الأحمر المعد، قليلة التحلل جراء عوادي الزمن، بل إن هيكل المسكن ذاته ذو هيئة مربعة، مجهزا في كل زاوية ببرج متقلص نحو الذروة، متسم بالخفة، ومكلل بهرم عال مبتور، ومزود بحواف مسحوقة. وفوق السطح - على غرار أعالي الأبراج - مطلي بالجير المنساب صوب التربة في خطوط طويلة شبيهة بالدموع البيضاء المندلقة على الطابية السمراء. كان الأثر غريبا حقا.

(1) أنيميتر: قرية محصنة بوادي أونيلا على الطريق بين أيت بنحدو وتلوات غير بعيد عن قصبة تامداغ.



قصبة أنيميتر (تصوير: Gillot)

يجاور ذاك الوادي بحقوله الخصيبة لكونها مسقية الأراضي المقفرة التي يجوبها الرحل وقطاع الطرق الذين يعيشون على القافلة أو القرية، كما أعدت كل أسرة – ووجب أن يعني ذلك اصطلاح «الجنس» الروماني – وسيلة دفاعية لمصلحتها. تشكل أسوار تلوات التي تحصر قرية وسوقا تنظيما دفاعيا مشتركا تحت قيادة شيخ واحد، هو القائد. وعلى العكس من ذلك، لقصبات وادي أونيلا على غرار قصبات سكورة التي تليها، طابعا دفاعيا أسريا، وليست هناك القصبة العظيمة وحدها، وإنما قصبات صغيرة متعددة تمنح الشعور كما لو كانت محاكية لها في الزخرفة الخارجية.

التحقنا بقصبة الشيخ ولم يكن موجودا بها، وتبعا لذلك ظلت البوابة موصدة. لقد أفصح لنا خدمه بوجوده في حقول الزراعة، فتوجه أحدهم لإخباره، لأن وجود مخزني لسيد تلوات بالقرب منا دل على كوننا شخصيات مهمة. بعيد ذلك على المسلك النازل من الجبل كانت نقطة سوداء مجللة بكتلة بيضاء تهتز، وتتحرك وتتضخم بسرعة أمام النظر. قيل لنا بأنه هو، رغم أن الشخصية لم تكن مميزة بعد، لكن البغلة كانت

تتقدم سريعا بخطى متوترة تفلق الصخر بطرقات جافة مسموعة من بعيد؛ كان فارسها يثيرها بالتأرجح المتناوب لساقيه.

لقد دنا، وكان رجلا قصيرا مستدير الهيئة تماما، مرتديا البياض، ومعتمرا عمامة بيضاء مائلة إلى حد ما حول صلعته، وكانت يمناه تهز إيقاعيا ريشة ناعمة طويلة، غصن قصبة لطرد الذباب، مثلما لاتخاذ مظهر ما، إلا إن كان ذاك رمزا للنفوذ. كان أسمر، قدر ما كان مستعجلا ومبتسما، ومرحبا بعاطفة شديدة، وللترحيب بنا قفز من على متن بغله لأنه كان رشيقا رغم هيئته المستديرة. وبالنظر إليه كان التفكير في أحد الملوك الصغار في القصص الشرقية، في أحد أمراء الأوبريت.

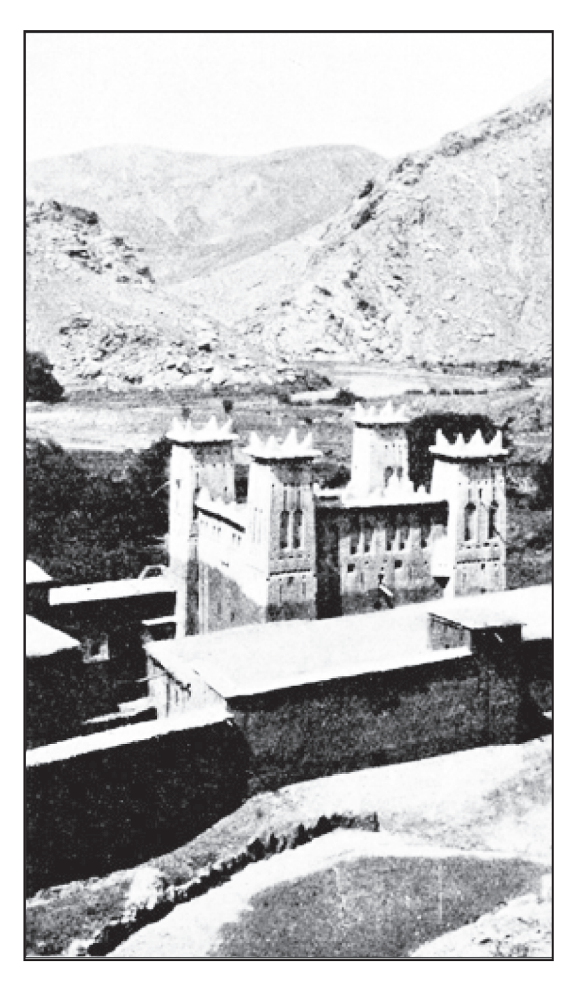
في أعقابه صعدنا عبر درج مظلم ضيق، لامست فيه أكتافنا الجدران إلى حجرة تستمد نور النهار بانفتاحها على بساتين الوادي من خلال نافذة صغيرة مسيجة. إنها غرفة المراقبة، وأيضا حجرة الضيوف، في بناية مستقلة تماما عن القصبة ذات الأبراج الطويلة السمراء التي تخفي أسرار الحياة الأسرية الأمازيغية. قدم الخدم بأطباق العسل، ولم يكن علينا إلا مد اليد لاستخراج اللوز والجوز الجاف من قفاف موضوعة في كل مكان فوق الحصير، كوجبة سريعة استعملنا فيها اللوز ملعقة لانتشال العسل.

يتحدث شيخ أنيميتر الشلحة[1] ممزوجة ببعض الألفاظ العربية التي أدركها حديثا، ويتمسم بمظهر الذكاء، وعليه التوجيه الهانئ للحياة البسيطة لمرؤوسيه، غير أنه ليس دائما على تلك الحالة بأنيميتر. وبالفعل ينقل الدكتور شاتينيير (Dr. Chatinières)[2] بأن السي الحاج التهامي الگلاوي، باشا مراكش الحالي، قد وجب عليه القيام بالحرب من أجل إخضاع الشيخ المذكور، وبما أن مدفع البرونز لم يحقق أية نتيجة ضد أسوار الطابية، فإن خيانة أحد أتباعه هو ما أدى إلى سقوط الشيخ في الأسر.

---

(1) الشلحة أو تشلحيت: لهجة أمازيغية، يسود استعمالها في المجال الممتد من شمال الأطلس الكبير الغربي حتى واد نون وعلى امتداد مجرى واد درعة. انظر أحمد بوكوس، مادة تشلحيت، **معلمة المغرب**، ج 7، ص 2380-2381.

(2) بول شاتينيير (1884-1928): طبيب فرنسي، عمل إلى جانب المقيم العام ليوطي ما بين سنتي 1912 و1916 كأحد رواد ترسيخ نفوذ الحماية بالمغرب، وبفضل إتقانه للغتين العربية والأمازيغية عين مشرفا عاما على المستوصف الأهلي بتارودانت وعلى المجموعة الصحية المتحركة لمراكش، وبها توفي جراء إصابته بالتفوئيد. وقد خلف كتابا « كناش الطريق « (1919) ضمن سلسلة « في الأطلس الكبير المغربي « بتقديم من ليوطي. وفي سنة 2008 تم بتلك المدينة تدشين متحف للطب والصحة يحمل اسمه.



قصبة شيخ أنيميتر، ووادي أونيلا النازل باتجاه دادس – نموذج قصبات الأطلس الكبير

(تصوير: de Mazières)

على بعد بضع كيلومترات نحو الجنوب قرية أونيلا، وهي مجمع للبساتين التي تنتصب وسطها قصبات صغيرة مشابهة، وتجمعات ضئيلة من الديار الخفيضة بالقرب من الواد تتوقف عندها القوافل.

لكافة تلك الأودية التي تشكل الطرق تيغرمت متسلسلات على طول الواد، مع منازل خفيضة متجمعة تحت جدرانها لتلقي حمايتها؛ وبذلك يتم بلوغ واحات واد

دادس التي بوقوعها شرقا وعلى السفح الشمالي لجبل صاغرو[1]، تشكل امتدادا لتدغة؛ إنه اتجاه تافيلالت. وإلى الجنوب من ورزازات عبر واد درعة، هناك طريق السودان والنيجر.

باتجاه دادس ودرعة

بمغادرة نجد تلوات للذهاب صوب الجنوب يولج إلى الناحية القفر من الأطلس، حسبما كتب شارل دو فوكو الذي يمكن دائما اقتباس أوصافه المضبوطة: «الكل صخري، أخاديد ذات جدران من الحث، ومن دون ماء ولا اخضرار. الأسرة الجافة مغطاة بطبقة من الملح، ولا وجود لتربة ولا لنبات. وفجأة يتم بلوغ وادي يشكل مع تلك الناحية البئيسة التناقض الأكثر جلاء: محفور مباشرة وسط النجد الفسيح من الحجارة الذي يحيط به، يظهر بصورة غير متوقعة مرحا ومخضرا بفيض جار في قعر دعمت ضفتاه بدون أي انقطاع بالبساتين والمزروعات، ومحيطا بعدد كبير من القرى وتجمعات المنازل، وتيغرمت شرق واد درعة الذي ينطلق منه، وبه نجد تيغرمت بربيجاتها الجميلة، وسطوحها المفوهة، ودرابزينها المحدثة: منازل ذات جدران مفعمة بالرسوم والنقوش، وأحزمة القباب ليست إلا عربسات وتزيينات».

للحاق في ماي 1931 من مراكش بورزازات بالسيارة سلكنا طريق الجبل حتى فج تيزي-ن-تشكا، ثم على السفح الجنوبي المسلك المشيد من طرف مصلحة الاستعلامات الذي قام مهندسو الأشغال العمومية بتعديله في بعض مواقع المسار. ينزل المسلك غير المعبد وادي أسيف تامسنا[2] الذي بتضخمه ببعض مياه الأودية الصغيرة المتاخمة سيصبح أسيف إميني[3]، الوادي المخضر كفاية الذي كلما ابتعد يضم قرى وسط الأشجار، وبعض القصبات الصغرى دون أية تهيئة عمرانية، على غرار أديران، تحرس المعبر.

(1) جبل صاغرو: يشكل امتدادا للأطلس الصغير، ويقع إلى الشرق من ورزازات بين السفوح الجنوبية الوسطى للأطلس الكبير وشمال واحات درعة، ويتسم بطابع التضرس، ومحيطه موطن لاتحادية قبائل أيت عطا. انظر عبد القادر بوراس، مادة صاغرو، **معلمة المغرب**، ج 16، ص 5468-5469.

(2) بمحاذاة الطريق الوطنية 9 على بعد 4.5 كلم جنوب أݣلموس.

(3) واد إميني: واد ينبع من قمم الأطلس الكبير الأوسط ويتدفق على السفح الجنوبي باتجاه عام من الشمال-الغربي نحو الجنوب-الشرقي مواكبا للطريق الوطنية رقم 9 حيث يشكل إلى الجنوب من قصبة بنحدو رافدا من روافد واد تيديلي.

بمبارحة السفوح الأخيرة للأطلس، يدع المسلك واد إميني، ويدنو من النجد الذي يتلو نجد تلوات في وحدة مملة، ومن دون نباتات حتى تجمع أيت بنحدو الذي يبدو على امتداد واد المالح بمثابة جزيرة صغيرة من الاخضرار معلقة عند سفح تل حجري تشرف عليه قلعة. إنه تجمع من القصبات الصغيرة ذات أبراج مفوهة تذكر بأنيميتر وأونيلا، غير أنها متشابكة في إطار قرية مدمجة؛ ولقصبة الشيخ فوق تجمع الطابية السمراء أبراج مطلية بالجير الأبيض؛ والبساتين المروية مستلقية على طول مجرى الواد.

أيت بنحدو ملتقى الطرق صوب سوس عبر تازناخت[1]، ونحو تافيلالت عبر ورزازات؛ وبمغادرتها يتاخم جرف مضلع بغرابة على هيئة أرغن عظيم، وبعده القفر الموحش غير المطلق مع ذلك، بما أنه على الميمنة ترى البساتين كخط بسيط من الخضرة على ضفة الواد، والتجمعات السمراء والقصبات التي تكللها. هنا ماء الواد ما يهب الحياة، حيث تبدو الزراعات والقرى مصطفة بمجرد ظهور الماء على السطح، أو حينما يتم التمكن من نقله للسقي.

تاوريرت[2] ورزازات عند ملتقى الواديين الهامين، واللذين على غرار الوديان الصحراوية يندثران وينبعثان مجددا مانحين بالماء الحياة المختفية، فتتغطى ضفافهما حينذاك بأشجار النخيل والتمر الهندي والأشجار المثمرة. ومن أعلى سطح مركز القيادة، أو سطح تاوريرت التي هي القلعة الحصينة والقرية في الوقت ذاته، ويعيش فيها القائد حمادي الگلاوي، تعاين بتوجيه النظر إلى الجنوب وجهة الصحراء والسودان والنيجر. وفي السفوح يسري واد إيدرمي[3] (أو ورزازات)، مشكلا من أسيف المالح وأسيف إميني المتجمعين منذ تيكيرت في الشمال-الغربي. يلتقيان قليلا عند الشرق بواد دادس المنساب

(1) تازناخت: قرية صنهاجية بناحية ورزازات عند سفوح الأطلس الكبير الأوسط على علو 1.416م، غلى الطريق الرابطة بين تاليوين وورزازات، تتكون من عدة دواوير سكانية، انظر أحمد هوزلي، مادة تازناحت، **معلمة المغرب**، ج 6، ص 2039.

(2) تاوريرت: القصبة الرئيسية لورزازات يرجع بناؤها إلى القرن 17، وصارت أواخر في عهد الحسن الأول ضمن القصبات القيادية للقائد محمد أبييض المزواري الگلاوي للتحكم في الحركة التجارية بين واحات درعة وأسواق ورزازات، ثم ترسخ دورها في عهد المدني، حيث قام حمادي الگلاوي بتوسيعها وتجميل بنيانها. انظر:
R. Montagne, **Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc**, Paris 1930, p 331.

(3) واد إيدرمي: مسيل مائي بجماعة أمرزگان بإقليم ورزازات، وعلى ضفافه تقع دوار زاوية إيدرمي.

من الشمال-الشرقي، وهنا يتولد طبيعيا واد أكثر أهمية، هو واد درعة الذي يروي على امتداد مجراه العديد من البساتين الصغيرة من النخيل.

وتاوريرت ورزازات ذات الأبراج المصفرة المائلة إلى الأخضر-الرمادي هي قلعة حقيقية تشرف على الواديين، ومن ثم على الطريقين المتوجهين إلى الشرق (عبر تافيلالت)، وإلى الجنوب (السودان)، وتشمل – على غرار قصبة تلوات – الإقامة الخاصة الفسيحة والمنغلقة للقائد السي حمادي، القصر بصريح القول؛ والبناية الأهم الأكثر علوا من بناية تلوات، مؤلفة من أبراج ضخمة مربعة، منصوبة بصورة غير متقنة على هيكل المبنى، وللجدران المفعمة بالرسوم البارزة نوافذ مزيفة منحوتة، مكللة بشرافات بيضاء.

إنها كتلة ضخمة مغلقة جهة الطريق بجدار مشيد بدوره بالتراب المدكوك، لأن القصبة بنيت بالطابية؛ ويطرح السؤال حول كيفية تمكن الأسوار من الصمود، ولا ندري حجم السمك. وبالفعل، فإن القائد الذي قدم نحونا استضافنا في مبنى مستقل ذي طوابق، على السطح، وأدخلنا إلى حجرة الضيوف ذات السقف الملون.

خلف القلعة وفي سور الحزام تختبئ القرية، فمن جهة هي القرية الأمازيغية، قرية «الفلاحين»، خدما ومزارعين، يشرف عليها قبو الإقامة الخاصة للسي محمد العربي؛ ثم جهة الغرب قرية اليهود من الحرفيين وأصحاب الدكاكين.

تحت الضوء الحارق للشمس تتضح بجلاء كافة رسوم الجدران بكل تفاصيلها، إلا أنه بعد الزوال تنسج ريح رملية باعتياد حجابا غير شفاف يخفي كل شيء من ورائه. لم ندرك جيدا أنه هنا تخلق قوة الريح الوحشة وضباب الغبار الأحمر الذي يبتلعه الفم والأذن، ريح تفرك الحصى وتقتلعه من أديم التربة، وتزداد هبوبا بلا انقطاع.

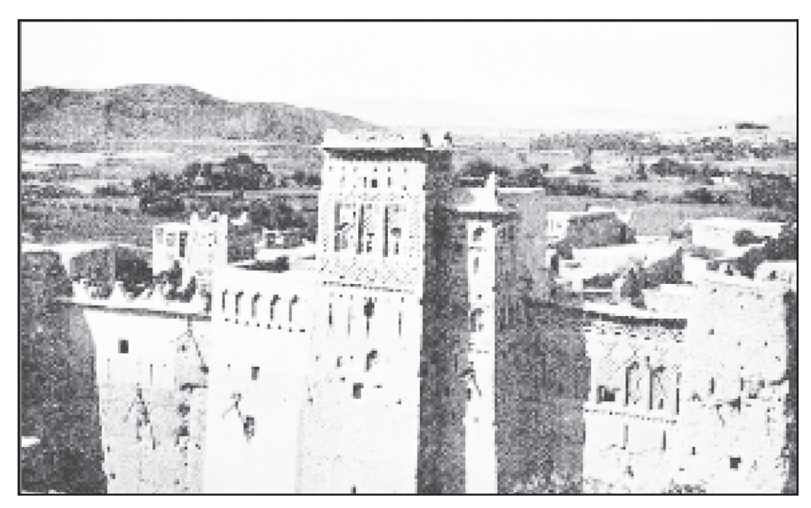
القائد السي حمادي الگلاوي هو سيد الناحية الواقع تحت مراقبة مصلحة الاستعلامات، إلا أنه لا يزال يستوجب التعامل معه حتى يكون أكثر مرونة مثل عمه، قائد تلوات الذي يتبع له. وخارج ذلك، بواسطة خلفائه يمتد نفوذ القائد، ولكن آنذاك بالأحرى بهيبته الشخصية. يقدم أهالي درعة والواحات الصحراوية ونجود الأطلس القديم إلى سوق ورزازات.

* * *

من ورزازات، صعودا مع مجرى واد دادس، يتجه المسلك نحو الشرق، وباتجاه تدغة وصوب تافيلالت. تتوالى بساتين النخيل الصغيرة بقصباتها؛ فبأيت بودلال[1] قام الشيخ الذي جذبه محرك سيارتنا من سطح برجه بإبداء علامات الترحيب التي شئنا التغاضي عنها لأننا كنا مستعجلين، وسيكون علينا تناول فنجان شاي تلو الآخر، ولن تكون من الكياسة المغادرة دون المحادثة ولو قليلا. ولكن كيف لنا التغاضي عن دعوة عاجلة مثلها؟

نزل الشيخ من برجه، وانتصب قبالة عدساتنا الفوتوغرافية التي واجهها بدون استغراب. وللصعود إلى برجه الوحيد المستند إلى هيكل مبناه أصعدنا عبر الدرج المظلم طابقين، وبالتالي إلى مسكنين؛ وعلى السطح سارعت النسوة والخدم لإعداد الشاي. هناك عاينًّا أجمل الرسوم على وجه شابة يافعة: خط أسود عمودي يفرق الجبهة، ويتوقف عند مستوى العينين، وينساب على عظمة الأنف، ثم عموديا يفصل الذقن؛ والحاجبان ممدودان ومفعمان بنفس الصباغة السوداء، وفي الأعلى خطا عكر أحمر في هيئة شعاع دائرة، ومحددان في الأسفل، وينتهيان فوق الخدين بنقطتين بالعكر ذاته؛ والصدر مزدان بالقلائد والحلقات الفضية، والذراعان كما القدمان محليان في الأعلى بأساور ثقيلة وبصياغة خشنة إلى حد ما.

(1) أيت بودلال: تجمع سكاني على بعد 15 كلم شرق مدينة ورزازات، كآخر محطة يمر منها واد درعة قبل انحرافه جنوبا صوب الواحات.



وادي دادس وقرية أيت بودلال (تصوير: de Mazières)

على بعد 50 كلم من ورزازات يحاذي المسلك واحة النخيل البهية لسكورة التي تمتد على جانبي واد عين زرار[1]، أحد روافد دادس، بنخيلها وأشجارها المثمرة. ويتوالى تعدد القصبات ذات الأقباء المزدانة بالرسوم والشرافات ببساتينها على هيئة صفوف مطلة على الواد، إلى درجة خيل لنا استعراض قلاع صغيرة. وقد تكون تلك مبالغة للدلالة على تلك المنشآت المشيدة بالتراب المدكوك، غير وأنها تمتلك جدرانا شاهقة، وقليلا من الفوهات الخارجية، وكون القبو يستغل كمرقب لمعاينة المحيط الخارجي، لها مظهر الحصون المنيعة.

هنا، علاوة على ذلك، يكمن دورها في مراقبة البساتين من المتسللين والنهاب الذين يقدمون غالبا لسلب القوافل واختطاف النساء، لأن إناث سكورة جميلات طبقت شهرتهن الآفاق، وكما لو كن مستعدات للاختطاف تتزين كافتهن بحليهن وعصاباتهن وقلائدهن وأساورهن وخواتمهن الفضية.

تلك الحلي النسوية جذبت قبلا اهتمام ليون الإفريقي الذي كتب في هذا الصدد: «من عادة نسائهم أن يحملن في آذانهن أقراطا ضخمة من الفضة، فتضع بعضهن أربعة أقراط منها في كل أذن، ويستعملن أيضا أنواعا من مشابك الثياب الغليظة التي

(1) عين تنبع شمال واحة سكورة في محيط تجمع تاجانت.

تزن الواحدة منها أوقية يمسكن بها ثيابهن على أكتافهن ويحملن من الفضة مذلك خواتم في أصابعهن وخلاخل في سيقانهن. ولا يفعلن ذلك منهن إلا النبيلات والموسرات، أما نساء العامة والفقراء فيتخذن ناك الحلي من الحديد أو النحاس»[1].

سكورة واحة نخيل طولها 14 كلم وعرض 5 كلم، مسقية بمياه أسيف زرار؛ في البساتين تنتصب نحو مائة من القصبات الصغيرة، وبغاية الدفاع عن البساتين لم يكن من الممكن تجميعها في القرية، والمنازل المنعزلة محصنة، وهو ما يفسر عددها المهم وسط نخيل سكورة على طريق أهالي تدغة وتافيلالت، المشاهير بسمعتهم السيئة. والتجمع الوحيد هو تجمع «ملاح»[2] تاجانت خلف القصبة الجديدة (يعود لنحو عشرين عاما)، مقام الشيخ السي علي بن عبد الكبير الذي يتوفر بذلك بشكل مناسب على يهود خاضعين لحمايته؛ في هذه الناحية من الأطلس يحتمي الملاح بالقرب من القائد.

كانت سمعتنا العسكرية كافية لحماية البلد، فلم يكن لسكورة إلا بضعة جنود من الفيلق، ومركز هاتفي، وفرسان من الكَوم.

انتهت جولتنا بسكورة، وكانت الواحات تمتد بعيدا نحو الشرق. في ذلك الاتجاه تتقدم سياستنا العسكرية إلى ما وراء إيميتر[3]، مركز الخفر الذي نصب في ماي 1931 من طرف الكولونيل شاردون (Chardon)[4].

= = = = = = =

(1) آثرنا الرجوع إلى الترجمة العربية التي أنجزها محمد حجي ومحمد الأخضر. انظر الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ط 2، ج 1، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ودار الغرب الإسلامي، الرباط/بيروت 1983، ص 110.

(2) الحي اليهودي (المؤلفان).

(3) إيميتر: واحة بإقليم تنغير على الطريق الواصلة بين مركز هذه الأخيرة وبومالن دادس.

(4) الكولونيل شاردون: ضابط عسكري فرنسي، عمل باكرا في تثبيت الاستعمار الفرنسي بالمغرب، فكان منذ سنة 1908 على رأس الفيلق الثالث للكَوم المغربي في اكتساح الشاوية، وأضحى منذ تلك الفترة أحد ضباط الشؤون الأهلية الأكثر تمرسا، وكان الاعتماد عليه في صيف 1912 للتقدم في طليعة حملة موجان صوب مراكش لقطع الطريق على تقدم أحمد الهيبة، ثم أضحى منسق الاستعلامات لحملة تادلا تدعيما لقوات المدني الكَلاوي (1914-1919). وفي سنة 1924 عين قائدا عاما لدائرة أزيلال مشرفا على عمليات سبيلمان في إخضاع السفح الجنوبي للأطلس الكبير الأوسط، الأمر الذي رقاه سنة 1929 ليشرف على مكتب الاستعلامات بورزازات، ومكنه من السيطرة على القسم الأكبر من ناحية درعة.

2- في بلاد كَندافة

تالات - ن - يعقوب[1] هي المعقل العائلي لأسياد بلاد كَندافة، كما أن تاكَندافت المرتفعة في الجبل والتي يستقر بها أحد الخلفاء، هي الموقع الطليعي الساهر على فج تيزي ن-تاست، بوابة سوس.

كان القواد المحليون الأوائل أسلاف السي محمد أو علي، السيد المزارع الحكيم الذي يقيم بمولديخت[2] على مقربة من قصبة تاكَندافت، وكان مقامهم ببناية شاهقة من الطين الأسمر ذات مظهر بهي، حيث كان الاستقبال بها حميميا وبسيطا؛ كان على آل محمد أو علي تسيير شؤونهم وفق زمنهم بدون مشقة، وقد يكون ذلك سببا لضعفهم وتردي وضعهم وسط قبائل شرسة، إذ أضحوا أسياد زراعيين، وبدوا غير مكترثين بطموحات أخرى.

في تلك الناحية الشاهقة التي شكلت مهد قوة الموحدين، والمحاطة بالجبال، والمحمية جنوبا وشمالا بأخاديد شديدة الضيق، تصادف مقابر عديدة ذات لحود معلومة بحجارة عمودية، كانت ذكريات للمعارك بين القبائل، أو ضد الغزاة القادمين من الجنوب.

* * *

تقع طرق سوس وتارودانت ببلاد كَندافة، ويؤمن فجان العلاقة مع مراكش، هما تيزي ويشدن[3] وتيزي-ن-تاست، وهذا الأخير هو الأكثر عبورا.

---

(1) تالات-ن-يعقوب: قرية أمازيغية جبلية على ضفاف وادي نفيس الأوسط بدائرة أمزميز بحوز مراكش، على ممر استراتيجي يربط الحوز بسوس. انظر أحمد هوزلي، مادة تلات-ن-يعقوب، **معلمة المغرب**، ج 8، ص 2516-2517.

(2) مولديخت: قرية جبلية صغيرة بالأطلس الكبير الأوسط إلى الجنوب من تنمل.

(3) تيزي ويشدن: قد تكون موجودة على المسار الراهن للطريق الوطنية رقم 8 الرابطة بين مراكش وتارودانت عبر مسار إيمي-ن-تانوت وأمسكرود.



قصبة ݣندافة على واد نفيس (تصوير: Gillot)

عند مبارحة مراكش تدنو الطرق من الوادي الأعلى لواد نفيس، إما عبر تاحناوت[1] وسرير واد غيغاية[2] (أخدود مولاي إبراهيم) للالتحاق بنفيس أعالي تاݣاديرت-ن-بور[3]، الحارس الأول لبلاد ݣندافة، أو مباشرة عبر أومينيست وأݣرݣور[4] صعودا مع واد نفيس من منفذه في السهل؛ أو في الأخير من أمزميز عبر العقبة المفاجئة لتيزي-ن-تاݣورانت[5] التي شق فيها العبور المتواتر الطريق بشكل عميق، ومن هناك عبر رافد في اليسار وادي نفيس عند سفح قرية تينيسك، وعند ارݣيل المسماة بقرية الحدادين لأن القوافل كانت تتوقف بها لتحذية بهائمها.

---

(1) تاحناوت: ناحية جنوب مراكش على السفح الشمالي للأطلس الكبير يخترقها واد غيغاية، تستوطنها قبيلة غيغاية المصمودية، وتكمن أهميتها الاستراتيجية في كونها ملتقى طريق مراكش-سوس، وطريق الدير-أمزميز-أوريكة. انظر أحمد هوزلي، مادة ناحناوت، معلمة المغرب، ج 6، ص 1997.

(2) واد غيغاية: واد ينبع من الأطلس الكبير وينساب على سفحه المراكشي باتجاه الحوز عبر مسار عام من الجنوب إلى الغرب، مرورا بإمليل وحوض أسني وخوانق مولاي إبراهيم انتهاء بتاحناوت وسهل الحوز، واعتبر من روافد تانسيفت. انظر أحمد هوزلي، مادة غيغاية، **معلمة المغرب**، ج 19، ص 6370-6371.

(3) تاݣاديرت-ن-بور: مركز عال بالأطلس الكبير الأوسط، يقع شمال تنمل على الطريق بين أسني وأݣرد.

(4) أݣرݣور: موقع بحوز مراكش عند السفح الشمالي لجبال الأطلس إلى الغرب من بلدة تاحناوت، ويقع على بعد 40 كلم عن مراكش في محيط بحيرة لالة تاكركوست.

(5) تيزي-ن-تاݣورانت: قد يكون الفج الذي يخترق المرتفعات المطلة مباشرة على مدينة أمزميز، ويربطها بقرية أزݣور.

* * *

وأولى القصبات في بسيط الحوز التي تدل على طريق مراكش صوب سوس عبر بلاد كَندافة هي قصبة أومينيست[1] التي تعود إلى القائد عمر السكتاني، على بعد نحو 30 كلم من مراكش، فوق نتوء مكون من التقاء حافتين؛ وهي تتحكم في طريق واد نفيس عبر أكَركَور، وتختلف من حيث الطراز عن قصبات الجبال بهيكلها كبناية بيضاء أكثر رشاقة، وبأبراج زواياها الأربعة المتضائلة عند القمة. وكالعادة، وبعد بوابة المدخل والدهليز ذي الانعطافة يتم بلوغ صحن تتجمع فيه الأنعام ليلا، ثم توصل بوابة داخلية إلى بستان برتقال رائع حظينا فيه بضيافة رائعة سنة 1920.

تعود أصول أهالي القائد، السكتانيين[2]، إلى السودان، ويذكر الدكتور شاتينيير أنهم اجتازوا الأطلس الكبير ثأرا لعناصرهم في بسيط مراكش، وبامتطائهم الحمير، وارتدائهم على شاكلة النساء، أخفوا البنادق والخناجر حينذاك، وتم استقبالهم دون احتراز، وهكذا قضوا على كافة رجال أولاد أبي السباع[3]؛ وبسيطرتهم على أهالي المكان سبوا النساء والأراضي المتخلى عنها واستقروا به، مع احتفاظهم بعلاقات متينة مع سكتانيي السودان.

* * *

(1) ينطبق التوصيف على قرية أومناس الواقعة إلى جنوب مراكش بعد تجاوز بلدة تامصلوحت.

(2) قبيلة سكتانة: من القبائل التاريخية لجبل جزولة بالأطلس الصغير، لعبت دورا مهما في تاريخ المنطقة بتحكمها في الممرات الواصلة بين سهل سوس وواحات باني الشرقية من جهة، وبين أحلاف جزولة وأحلاف أيت واوزكَيت. انظر محمد حنداين، مادة سكتانة، **معلمة المغرب**، ج 15، ص 5018.

(3) أولاد أبي السباع: يعود نسبهم إلى عامر الهامل الملقب بأبي السباع دفين سوس، والذي تعيد كتب الأنساب انحداره من الشرفاء الأدارسة، وهي قبيلة صحراوية تميزت بقوة شكيمتها، تفرقت بين الصحراء موطنها الأصلي وحوز مراكش شمالا الذي استوطنته مجموعة منهم في منطلق الدولة السعدية، وأعيد تثبيتهم في العهد العلوي، وجمع أفرادها بين السيف والعلم، قبل أن يعرفوا مصيرا مغايرا في صراعهم مع قبائل الشياظمة وغيرها من القبائل من جهة، وفي تحرك السلطة المركزية ضدهم. انظر مولاي حسن كفناني، **قبيلة أولاد أبي السباع في القرن 19**، رسالة د. د. ع.، (مرقونة)، كلية الآداب، الرباط 1988.

قصبة أمزميز[1] من الطابية محاطة بأسوار فوق أشجار الزيتون والبساتين، وهي قلعة حصينة للقواد الكَنْدافيين في سفح الأطلس ذاته، عند مطلع طريق تيزي-ن-تاكَورانت المفضية إلى أعالي الجبل بتجاوز كتلة إردوز.

* * *

وتاكَاديرت-ن-بور موجودة أصلا بالجبل، وقد شيدت القصبة وشيكة من واد نفيس على ارتفاع نحو 40م عن الواد عند ملتقى المسالك القادمة من أومنيست وأكَركَور من جهة، ومن بلاد كَلاوة وأسني ومولاي إبراهيم[2] ومن جهة أخرى؛ وخلف القصبة تزدحم جالية يهودية تحت حراسة الشيخ، وتحصر داخل جدرانها قرية للشلوح؛ إنها أولى القصبات بالجبل على طريق الجنوب.

* * *

خلال جزء هام من عقبة واد نفيس يمتد المسلك على هيئة إفريز ضيق يشرف على الواد، يقود إليه نزولا عن طريق معبر ضحل، ويلتصق مجددا بالجانب الجبلي، ومن ثم يتم بلوغ الوادي الأعلى لتالات-ن-يعقوب.

* * *

(1) أمزميز: بلدة بدير الأطلس الكبير الغربي عند مخارج الأودية الأطلسية جنوب مراكش (أيت أورير وإيمي-ن-تانوت) وتقع عند منفذ وادي أنكَال إلى السهل على ارتفاع نحو 1.000م. وتكمن الأهمية الاستراتيجية لقصبتها منذ العهد السعدي بإشرافها على الطريق التجارية الرابطة بين مراكش وسوس باتجاه السودان الغربي عبر ممر تيزي-ن-ماشو؛ ومنذ ذلك الحين أضحت تضطلع بوظيفة مخزنية خاضعة لمراكش، وجذبت منافسة قواد الأطلس للاستحواذ عليها، ولا سيما مطلع القرن 20، ولم تفقد أهميتها إلا مع فتح طريق معبدة بين مراكش وتارودانت عبر تاحناوت وتيزي-ن-تاست أواخر عشرينات القرن الماضي. انظر أحمد بلاوي، مادة أمزميز، **معلمة المغرب**، ج 3، ص 752-754.

(2) مولاي إبراهيم: قرية كيك في الأصل المنتصبة فوق ربوة مرتفعة على الضفة اليمنى لواد غيغاية في النهاية الشرقية لنجد كيك، وستزداد شهرة بتوسعها حول ضريح وزاوية المترجم له، أحد حفدة سيدي عبد الله بن حسين دفين تامصلوحت وأحد متصوفة القرن 17م، خلال الربع الأول من القرن المذكور. انظر محمد المازوني، مادة الأمغاري إبراهيم، **معلمة المغرب**، ج 3، ص 768-769؛ وأيضا:

Rachid Youssoufi, **Maraboutisme et société au Maroc – L'exemple de Moulay Brahim**, Thèse de doctorat en sociologie, Université Paris 7, 1984.

قصبة تالات-ن-يعقوب قلعة عائلية للقواد الكَندافيين بوادي فسيح ومنسجم، تسبح أسوارها في مياه واد نفيس شديد الجريان؛ وقد حافظت فيها الأبراج على أوتاد التويا التي استعملت في البناء، وتبدو تلك الأوتاد الخارجة أفقيا من الجدران بمثابة رماح مشرعة. ويرى بأن القصبة كانت في طريق مسار جحافل المحاربين؛ وفي الجهة المقابلة للواد كانت جدرانها محاطة بالخنادق، وفي الوسط برج مربع الهيئة ذو شرافات استغل موقعا للحراسة.

وقد استكمل الوضع الدفاعي للوادي بقصبة أخرى، سميت أكَادير-ن-كَوج[1]، وهي من دون إبداع معماري، قصبة للحرب منصوبة فوق ربوة مدببة، وتتحكم في الآن ذاته في مسلك تيزي تاكَندافت وفي مسلك تنمل، لها قبالتها الوادي العريض لتالات-ن-يعقوب الذي يختم السلسلة الجبلية وانوكريم[2]؛ إنها الصد الدفاعي لغزاة الجنوب، أو للجيران الأكثر قوة.

تالات - ن - يعقوب ملتقى المسالك صوب تيزي-ن-تاست، وصوب تيزي ويشدن المتجهين معا إلى سوس، الأول محروس بقصبة تاكَندافت، والثاني بقصبة أكَادير-ن-او علا.

* * *

وبالفعل، وعلى مقربة من القصبة إلى الأمام، عند مقرن أكَونديا النازل من جبل وانوكريم يتجه مسلك قدما نحو الجنوب، متعرجا أحيانا على الجوانب القاحلة، وأحيانا أخرى تحت أشجار السنديان الأخضر، ويصعد باستقامة لبلوغ فج ويشدن، على علو 2.700م، مانحا الدخول إلى سوس التي يشرف عليها من فوق الوادي العالي

(1) أكَادير-ن-كَوج: قصبة شيدت فوق ربوة على الضفة اليسرى لواد نفيس قبالة تالات-ن-يعقوب سنة 1907 على يد القائد الطيب الكَندافي، لتدعيم موقعه في مواجهة التهامي الكَلاوي جراء امتناعه عن دعم السلطان مولاي عبد العزيز، غير أن وصول الفرنسيين ونجاحهم في تغيير الوضع لفائدته دفعه إلى التخلي عن إتمام بنائها. انظر:

Jean Gandini, **Pistes du Maroc à travers l'histoire**, T 1, Haut et Moyen Atlas, éd. EXTREM-Sud SERRE, 2006, p 115.

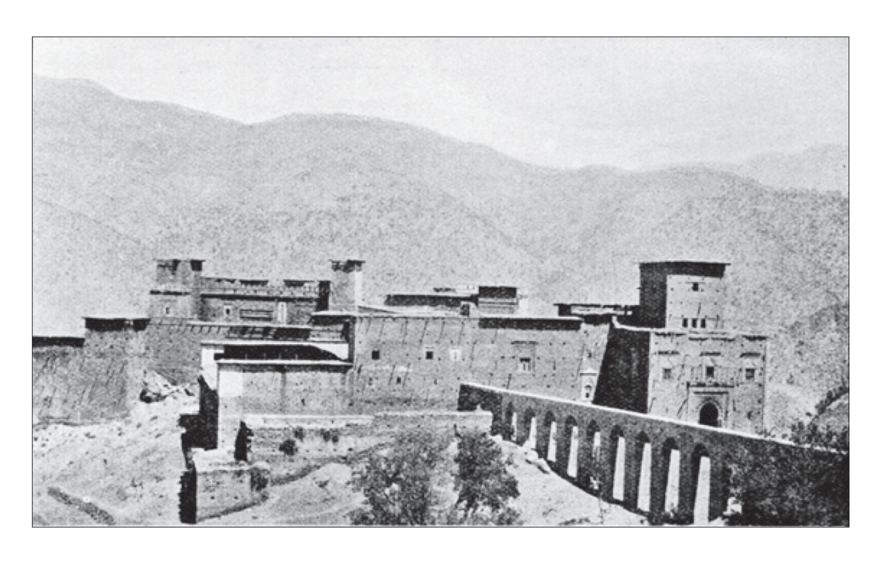
(2) السلسلة الواقعة عن بعد نحو 11 كلم إلى الجنوب من قرية أرمد.

أونايـن[1] المفعم بالسنديان الأخضر وبأشجار الزيتون وبالقرى؛ وعبر تيزي-ن-تازوگارت على ارتفاع 1.000م يتم الدخول إلى سوس العالية.

والمسلك الآخر الشاق بدوره، يصل بعد تالات-ن-يعقوب عبر القصبة المحاربة ن-گوج إلى الوادي الصغير المفضي عبر تيزي-ن-تاگندافت إلى قدم أسوار قصبة تاگندافت.

وتاگندافت الواقعة على بعد 15 كلم أعالي القصبة هي قلعة طليعية حصينة، سامقة بدورها بعلو وكبرياء فوق كتلة صخرية؛ قبالة منخفض متدرج من الجبال، تعاين في الأعلى فج سوس، وعند سفحها التقاء المسلكين القادمين عبر تنمل وعبر تيزي-ن-تاگندافت. والدخول إليها عبر مسلك للبغال، سواء من الجنوب أو من الشمال، صعب جدا. والخليفة الذي يقيم بها باسم القائد، هو من ثم سيد الجبل الشاهق.

القصبة مكونة من تكتل من الأبراج المربعة من الحجارة السمراء التي تم تجميع بعضها إلى بعض، كخفر حقيقي ذي شرافات تتيح الاطلاع على كافة النواحي. والبرجان الرئيسيان المنصوبان كزاويتين للمجمع يتحكمان في وادي نفيس.



قصبة تاگندافت أعالي وادي نفيس وقناتها المائية. وهي تتحكم في طرق سوس عبر تيزي-ن-ايست باتجاه مراكش (تصوير: de Mazières)

(1) أونايـن: قرية صغيرة على الواجهة الجنوبية للأطلس الكبير الغربي، على بعد نحو 45 كلم إلى الجنوب من تنمل.

إنها إحدى أبهى قصبات الأطلس، وسقيفة دخولها بالتأكيد مسودة جراء الأدخنة التي تسفر عنها نيران الحدادين وحذّائي البهائم تحت الحنية؛ والبوابة سميكة وذات دفتين بجوانب من الحديد، يتم إقفالهما عند سدول الليل. وبعد ذلك الدهليز العميق بنحو 12م، والانعطافة الإجبارية لأي عبور، يتم بلوغ المسكن، ويفضي ذلك إلى صحن فسيح يتم فيه مساء تجميع القطعان والأحصنة والبغال. وعلى طول سور الحزام يوجد درج رديء، ثم ممر طويل يفضي إلى غرفة للضيوف، مستقلة تماما عن المسكن الرئيسي.

ينتصب برج أعلى ممر الدخول مواجها الجبل الأقرب الذي تلتصق به الربوة التي شيدت القصبة فوقها، وهو سميك الجدران، يشرف عليه برج مربع صغير الحجم يستغل مرقبا. وفي ذلك الجانب توجد قناة مائية من الحجر المبني من 13 أو 14 قوسا تجلب الماء من الجبل إلى الغرف العالية للخليفة. وقد اقتلعت منذ سنوات خلت جراء عاصفة عنيفة، وأعيد بناؤها على هيئتها الأصلية، لأن علم السباكة هنا لا يزال مجهولا.

رويت لنا حوادث تاريخية على الطريقة الأمازيغية، لكن ألا يزال علينا عرض جانب الأسطورة في إطار شرس ووحشي يتوافق تماما معها؟ إن حنية الدخول المعتمة حتى في وضح النهار بامتدادها وبدخان مصاهرها الصغيرة، والمطارق التي تحدث فوق السندان ضجيجا معدنيا، والحديد المحمر المطلق للشرر، كل ذلك مظهر معاد ليضعك على الفور في بلد القصص العجيبة. ومن ثم أنصتنا لسرد قصة وفاة زوجة شابة.

إذ في غيبة زوجها، الزعيم النافذ والمخيف في الناحية، قادها عمرها الذي يبلغ 14 سنة أو 16 إلى نزوة آثمة في عينيها، فتزينت بأبهى ألبستها وبحليها الفضية، وكيافعة أبدت بذلك الإعجاب بنفسها؛ هل تكون استعانت في ذلك بمرآة؟ لكن بابا انفتحت، وعند عودة الزعيم ما الذي سيظنه؟ ولمن ذلك التزيين؟

بخشيتها من صنيعها فرت الزوجة اليافعة عبر الممرات التي يسرت لها بلوغ سطح القلعة، ذاك الذي يشرف على أعالي الوادي. كان الزعيم في أعقابها، قد يكون يصرخ، أليس الهرب إقرارا بالذنب؟ حينذاك ألقت بنفسها إلى الفراغ، وانسحقت في الأسفل فوق الصخور. قد تكون حكاية، غير أن المكان كان مستعدا لتقبلها.

وعلى أي حال، إنها قصبة حربية وجب أن تعرف مشاهد أخرى في الأزمنة غير البعيدة، والتي كان فيها للمظفر كل الحقوق على أسراه.

في المرة الأولى التي حضرنا فيها إلى قصبة تاكَندافت قادمين من تنمل في مرحلة قوامها ساعتان على متن الحصان، كنا مرافقين، أو بالأحرى منقادين، بواسطة مخزني من مصلحة الاستعلامات، وببندقيته كان يمثل السلطة. وقد قام الخليفة، سيد البلد، باستقبالنا بها بصورة عفوية، لكنه وأمام رغبتنا في الإسراع في مواصلة مسيرتنا في مرحلة المساء اضطررنا إلى الاعتذار عن عدم إمكانية انتظار الوليمة بغرفة الضيوف، ولم نقبل إلا بالوجبة الخفيفة المقدمة للعابر: شاي وعسل وزبدة وفطائر.

في مرة أخرى وصلنا في زمرة صغيرة إلى تاكَنداقت، وفي تلك الفترة كان الجبل مؤمنا، ولم يكن يرافقنا المخزني الحامي. وباجتياز الحنية لزم علينا التفاوض مع الخادم الأسود في محاولة لرؤية الخليفة، وبعد جيئة وذهاب بين ممر الصحن الذي كنا ننتظر فيه ومخدع السيد، سمح لنا بالصعود إلى حجرة الضيوف التي سبقت لنا رؤيتها منذ سنتين خلتا، وتركنا على الأرائك لدقائق طوال، وكانت طويلة إلى درجة اتخاذنا في النهاية قرار النهوض من أجل المغادرة. وبما أن الترحاب قاعدة لدى الأمازيغي الذي تطلب منه الاستضافة، قام أحد الخدم أكثر رفعة في مهام القلعة باستبقائنا، وبادر على الفور إلى استقدام الشاي والزبدة والفطائر لنا، إلا أننا لم نر الخليفة هذه المرة.

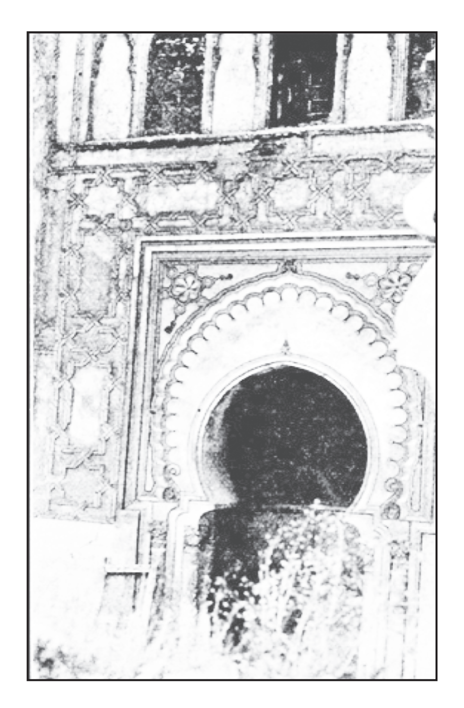
* * *

الطريق الحقيقية إلى سوس والأكثر ارتيادا هي تلك التي بعد قصبة كَندافة تحاذي وادي نفيس عبر تنمل مهد الموحدين؛ ولا يتمتع أهالي تنمل على الدوام بسمعة طيبة، فقد كتب عنهم ليون الإفريقي أنهم «من شر الخلق وأرذل النسل، يتبجحون بأنهم علماء، لأنهم درسوا جميعا عقيدة هذا الداعية (ابن تومرت) الذي يعد من أهل البدع، وحينما يرون أجنبيا قادما عندهم يريدون أن يناقشوه»[1].

(1) استقينا الصيغة المترجمة من الوزان، **وصف إفريقيا**، نفسه، ج 1، ص 141.

* * *

تعني تنمل «الآبار البيضاء»، لأن ملتقى الأودية ذاك محاط بالجبال التي تتدثر قممها بالثلوج فترة هامة من السنة؛ وتنمل هي ضريح السلاطين الموحدين الأوائل، وكانت من قبل قلعة للمصامدة، القبيلة الأصلية لواد نفيس والأطلس الكبير الساهرة على طريق سوس، والمفتوحة على الجنوب عبر الفج الذي يحدثه الواد.



محراب مسجد تنمل المشيد من طرف المهدي بن تومرت، والذي منه انطلق عبد المومن الموحدي سنة 1140م (تصوير: de Mazières)

بتنمل كان المهدي بن تومرت، الفقيه السوسي، يعظ بتجديد الإسلام وبغزو المغرب، حيث حوالي سنة 1140م شرع مريده عبد المومن في الحرب ضد السلطان المرابطي.

وقد خرب مسجد تنمل الذي أقامه عبد المومن تخليدا للمهدي جزئيا، وتهدمت سقوفه مع أعمدتها، وبجوار الصومعة فضل محراب[1] محفوظ مشيد بالآجر والجبس. تمت إعادة تغطية الصومعة – التي تهدمت من الأعلى جراء عوادي الزمن والرجال – بمبرر المحافظة عليها بقرميد من الطين الأحمر. فكيف صار بذلك الطراز الموحدي؟

لتنمل تاريخها، وقد رخص بالمحافظة عليها، ولم يرخص بتعديلها. ومن حسن الحظ بفضل الأسكوب ذو قباب الجبس المتقطعة بشتى الطرق، والقائم قبالة المحراب؛ وبأطلاله أمكن استعادة تخطيط تصميم المسجد، وقاعة الصلاة الموزعة على الأساكيب والبلاطات، والصحن. وفي ذلك قدم إدمون دوتي في مؤلفه « رحلة إلى قبائل الأطلس» (Voyage en tribu de l'Atlas) في ماي 1901 وصفا شاملا وقيما.

بأعلي قرية تنمل المأهولة بالأمازيغ المسلمين واليهود، والواقع في مكان أعلى من المسجد، ينتصب «أكَادير» ذو برجين مربعين؛ إنها القصبة الحارسة لأدرار التي غطيت بوابتها وإطارها برسوم خطية متنوعة الألوان.

في جولاتنا المختلفة عرفنا بتنمل دوما السي إبراهيم، خليفة قائد أهالي كَندافة، والذي أضحى في الوقت الراهن قائدا للناحية. تحت أشجار الليمون، في بستانه الممتد من ضفاف الواد حتى مسكنه الشخصي، مدت السجاجيد الأمازيغية، وكان الماء المغلى يخرخر فوق «مجمر»[2] النحاس، والنعناع الطري معد لشاي الترحيب المخصص لنا. كانت تلك زيارتنا لتنمل سنة 1920.

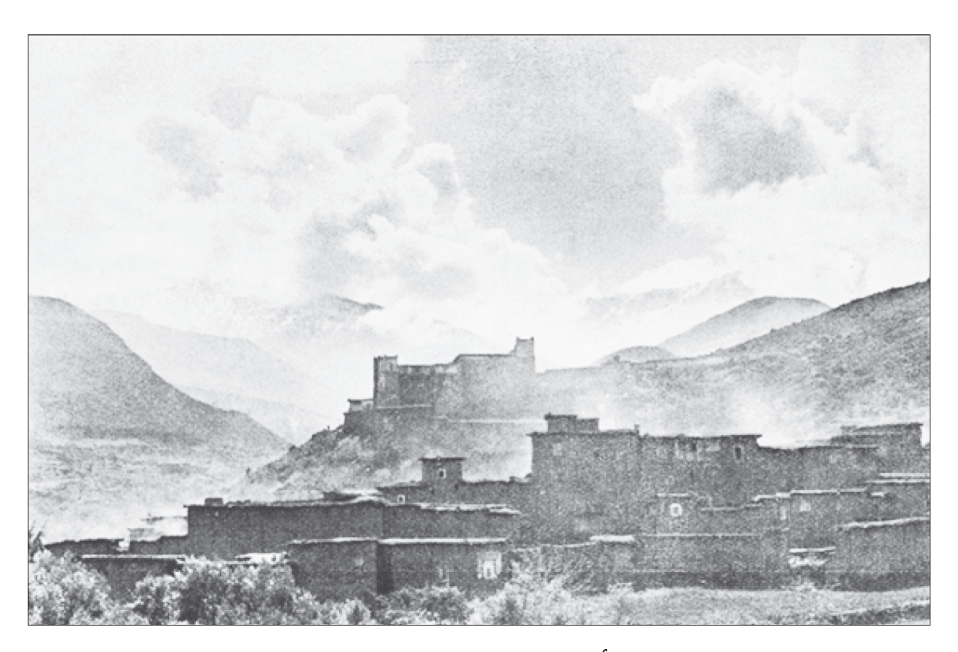
وسنوات بعد ذلك، بالرجوع عبر فج ويشدن، وبعد مرحلة شاقة لثماني ساعات على متن البغال وعبر المسالك الصعبة، طرقنا عند سدول الليل باب السي إبراهيم، الخليفة المضياف لكَندافة طلبا لاستضافته لنا لليلة واحدة؛ ولم يكن بمقدور بوابه، وحارسه الوفي والمنقاد للتعليمات أن يفتح لنا، إذ لم يكن السي إبراهيم موجودا. فأين سنقضي الليلة؟

---

(1) مجال محفوظ لتوجيه ممارسة الصلوات لدى المسلمين (المؤلفان).

(2) موقد بفرنه، والكل من النحاس (المؤلفان).

غير أنه قيل بأن الشلح، رغم كونه مجرد بواب لقائد، ووفي للتعليمات، لن يترك أناسا عابرين دون ملجإ؛ ففتح الباب ذات الصرير، وفي سبيل تمكيننا من نصب مراقدنا الريفية وفر لنا حجرة معتمة في مقدمة الصحن الأول، وهو ما كان مخصصا في العادة لأصحاب البغال ولمطاياهم، أو للخدم. وعلى ضوء الشموع الذائبة مددنا أغطيتنا وأقواتنا في صمت، آسفين للوضع الذي فرض علينا، وبدت لنا الليلة أكثر قتامة.



قرية أسني وقصبتها (تصوير: Gillot)

استسلمنا أمام الأقوات الباردة قليلة الاستساغة، غير أنه في الخارج ها هي ضوضاء متواترة لبغلة مسرعة صوب المكان؛ وعلى الفور ودون شعورنا بذلك، قدر ما كان المشهد في عجالة، سمعنا صرير مفاتيح، وعجيجا شديدا للباب، ثم بتوجيه من قنديل كبير محا الظلمة، وكما لو أنه كان يسير بمفرده، بدا لنا السي إبراهيم الخليفة في ثيابه البيضاء لا يزال يشد على بغلته البيضاء، ويمر قبالتنا بحيوية، وبنظرة باردة، ونحن هنالك، مستغربين لذلك الظهور الأبيض في عتمة الليل، وحينذاك عاد السكون...

ثم من الباب الثانية ظهر مجددا السي إبراهيم، الخليفة المضياف، قادما مترجلا صوبنا. كانت عبارات الترحيب اللفظية تتكرر، فقمنا بفك أمتعتنا. وفي حجرة الضيوف المطلة على بستان لليمون تكسر سكونه نافورة ماء، وبعد «طواجين»[1] الغنم والدجاج، والكسكس بالسكر، استقبلت أفرشة من الصوف، سميكة مثلما لم نشاهده من قبل أبدا، أطرافنا المتعبة إلى حد ما بنعومة.

* * *

بأعلى تنمل، عند سفح قصبة تاگندافت، يبتعد المسلك عن وادي نفيس متوجها قصيرا وبانحدار لاقتحام تيزي-ن-تاست، غير أن وعورة الطريق كانت بمثابة ترويض لعضلات الأمازيغ ولبغالهم المروضة على غرارهم على الدروس الشاقة للجبال. عند مخرج المعبر الضيق وغير الآمن تماما بانحداره الصعب بين ستارين حجريين يلقيان بانجرافاتهم على القافلة الخاضعة للأنين واللهاث، يتم بلوغ إيمي-ن-تامغرا (فم المطمورة)[2]، المجال الوشيك للكمائن. وبعد تيزي إيملود (الفج الأبيض) حللنا بالفعل بالقيسارية[3]، قعر الوادي، وفي الوقت ذاته ملتقى الأودية بأسفل تيزي إيزگرن (الفج الأحمر) الذي يسبق تيزي-ن-تاست، والذي كان فيه قطاع الطرق بمظهر الحطابين الوديعين يمارسون دورهم بسهولة.

والقيسارية؟ إنها المعبر الذي كان أهالي سوس في طريقهم بين تارودانت ومراكش يقتحمونه بخشية مبررة إن كانوا قليلي العدد، حيث كان الراجل المنفرد، وخصوصا المحمل بحزمة بضائع، ضحية مؤكدة، فكان عليه التوقف هنا أو هناك في قعر الوادي، وانتظار أفراد آخرين لاجتياز القيسارية جماعة.

كان لهذه التي تحيل تسميتها على «السوق» سمعة سيئة، وتلك التسمية مثيرة للاهتمام، لأنه لا توجد هناك إلا الأشجار والصخور، إنها معاناة في ذلك المشهد الكئيب؛

(1) أطباق (المؤلفان).

(2) إيمي-ن-تامغرا: ينطبق الوصف على الموقع المسمى في الخريطة الطبوغرافية للمنطقة باسم إيمدرس الواقع على بعد نحو 10 كلم من تيزي-ن-تاست.

(3) قد يكون الموقع الموسوم في الخريطة الطبوغرافية للمنطقة باسم الشفارني.

غير أن شلوح القرى القريبة من إيمي-ن-أغبار، الرجال الحازمون ذوو النظرات الضارية والثاقبة مثل عيون العقبان، يتقاسمون بينهم أيام الشهر للسهر على المعبر، والسهر يعني ابتزاز العابرين، وسلب القوافل أو أكثر من ذلك إن كانت هناك مقاومة ما.

كان أولئك الأفراد يقومون إذن بنهب القافلة، ويعودون إلى القرية بالغنيمة، البضائع المسلوبة طوعا أو كرها، وكانوا يقولون بعودتهم من « سوق» القيسارية. إنها ناحية أغار التي عناها ليون الإفريقي في وصفه للأطلس حينما قال: «لا يتنقل الجبليون إلى أي مكان إلا إذا كانوا مجبرين على ذلك نوعا ما، بما أن الطرق زاخرة باللصوص والنهاب والأشرار». وليس أقل حقيقة كون القيسارية أضحت في الوقت الراهن تسمية جغرافية بارزة في خرائطنا، وقد امحى أي خطر منها.

من تيزي-ن-تاست على ارتفاع 2.110م في الطقس الصحو، يرى منخفض سوس والبساتين التي تحاذي الواد؛ «إنه المعبر إلى نوميديا بشمال إفريقيا» على حد قول مارمول[1].

3. قصبة أسني

بين بلاد ݣندافة وݣلاوة توجد طريق قليلة الارتياد، والتي من الوادي الرائع لأسني[2] تصل إلى تيزي-ن-تيفورار[3] صعودا مع مجرى واد غيغاية ومنخفض أروند[4]؛ يترك إلى غرب الأطلس الكبير العظيم جبل توبقال البالغ ارتفاعه 4.165م ليصل إلى الفج على علو 3.520م وكتلة تيفنوت. إنها طريق غير مأمونة وقليلة الارتياد في تيفنوت والأودية المرتفعة والمنحدرة صوب سوس.

---

(1) المراجع:

Ch. De Foucauld, **Reconnaissance au Maroc**, p 80 ; Léon l'Africain, **Description de l'Afrique** et Marmol Carvajal, **L'Afrique**, traduction de Pérot d'Ablincourt, 1667 (المؤلفان).

(2) أسني: حوض فلاحي على ضفاف وادي غيغاية بالأطلس الكبير جنوب مراكش، وتطلق تسميته أيضا على دوار كبير بمجموعة من قبيلة غيغاية المصمودية، يعرف بقصبة أسني. انظر أحمد هوزلي، مادة أسني، **معلمة المغرب**، ج 2، ص 454-455.

(3) تيزي تيفورار: الفج الذي في الخريطة الطبوغرافية ينتهي عنده المسلك رقم 2005 جنوب قرية أرمد.

(4) قد يكون القصد بذلك قرية أرمد الحالية الواقعة إلى الجنوب من إمليل في السفح الشمالي لقمة توبقال.

قصبة أسني للشيخ أحمد شاهقة بخيلاء على علو 1.280 م فوق أشجار الزيتون، والقرية التي تجمع المسلمين واليهود، تقريبا عند مقرن إمينيم[1] وواد غيغاية. وخلف الطريق التي تلتحق نحو الغرب بگندافة، تتحكم في معابر تينفوت وليكونت وتاشديرت[2]؛ وعند مقرن الواديين توجد قرى خربة ومهجورة تدل على أن المعارك كانت عنيفة بين القبائل.

دار باگون بمثابة قلعة حصينة من قلاع الراين، منعزلة فوق نتوء مشرف على منفذ أخاديد مولاي إبراهيم، وتقوم بدور الحراسة، وتتمم مراقبة تلك الناحية.

في سنة 1920، حينما تم استقبالنا لأول مرة بقصبة أسني، حدثنا الشيخ أحمد البدين بهلع عن أروند التي كانت قراها في تلك الآونة تابعة له، غير أنه لم يجرؤ أبدا على المغامرة فيها. في قعر منخفض أروند يوجد شمهروش، رئيس الجان الشرير أو الخير حسب الظروف، حيث لا يقض أي مؤمن الليلة بالقرب من مغارته الحجرية. وإذا كان الشيخ أحمد لا يجبي الضريبة من مرؤوسيه في موقع مسكون بالأرواح، فإنه لا يتردد في المطالبة بحق المرور من الأفراد النازلين من تيفنوت، أو من أولئك القادمين إلى صخرة شمهروش طلبا للحماية، أو لتحقيق أمنية ما.

نشير أنه كما هو الحال بالنسبة لقصبة أسني على السفح الشمالي، تحرس قصبة أسارَكَ على السفح الجنوبي فجاج تيفورار وجبل ليكونت.

***

رأينا بذلك القصبتين على الممرين الرئيسيين عبر الأطلس الكبير؛ والممر الآخر لسوس نحو المناطق الشمالية عبر أخاديد إيمي-ن-تانوت تتحكم فيه قصبة متوكَة، القلعة الحصينة السفلى والواسعة مع ذلك منتصبة فوق نجد قاحل. وقد استحضرت

(1) مقرن إمنيم: تمثله في الخريط الطبوغرافية نقطة التقاء الطريق الجهوية رقم 203 بالمسلك رقم 2005 قبالة أسني.

(2) طريق جبلية بين توبقال وأوكايمدن تحمل في الخريطة الطبوغرافية الرقم 2030، وتبعد فيها تاشديرت عن أمليل بنحو 14 كلم إلى الشرق.

صراعات عديدة جراء التنافس على السلطة والمطالب الترابية القواد الثلاثة النافذين الذين يتحكمون في فجاج الأطلس الكبير: الگلاوي والگندافي والمتوگي.

وخارج تلك المعابر الرئيسية كانت هنالك قصبات أخرى، ولا تزال حارسة لجزء من أراضي الجبل، هي دمنات[1] ذات الأبراج المتهدمة والأسوار المخربة جزئيا؛ ثم تانانت[2] وأوريكة التي هي في الوقت الراهن إقامة هادئة لقائد مزارع[3].

(1) دمنات: مدينة عريقة عند سفح الأطلس الكبير الأوسط على بعد 120 كلم شرق مدينة مراكش على ارتفاع 960م، معقل قبيلة إينولتان، تشرف على ممرات حبلية رابطة بين المغرب الصحراوي والسهول الشمالية تجاريا، وفي ضبط القبائل الجبلية الأطلسية مخزنيا وسياسيا، خصوصا في عهد سيدي محمد بن عبد الرحمن. انظر أحمد التوفيق، مادة دمنات، **معلمة المغرب**، ج 12، ص 4079-4081.

(2) تانانت: موقع بدائرة بزو إقليم أزيلال، يقع بالسفوح الشمالية للأطلس الكبير الأوسط ، يشرف على الحوز الشرقي وسهل السراغنة، ويشغله فصيل من قبيلة نتيفة المنتمية إلى اتحادية هسكورة الظل. وقد أنشأت سلطات الحماية مركزا بالموقع سنة 1916 كقاعدة عسكرية غير بعيد عن قرية تعرف بالاسم ذاته كانت في فترة ما مركزا لقائد نتيفة. انظر أحمد هوزلي، مادة تانانت، **معلمة المغرب**، ج 7، ص 2212-2214.

(3) المراجع:

E. Doutté, **En tribu**, p 107 et suivants ; Dr Chatinières, **Dans le Grand Atlas marocain**, 1919 ; Ch. De Foucauld, **Reconnaissance au Maroc**, p 66 et Léon l'Africain, **Description de l'Afrique** (المؤلفان)

الفصل الثاني

الطرق الحالية

تعود جولتنا الأولى في الأطلس الكبير إلى يونيو 1920، بداية في بلاد گندافة، مع تنمل كتقدم أقصى، حد النطاق المسموح به في الفترة، ثم أوريكة وگلاوة.

كان البغل وسيلتنا في التنقل، وكان قادرا على اقتحام فجاج الحصى ومتابعة المسالك الضيقة بعين شاردة، وغالبا فوق جرف الوادي مباشرة. كانت السرعة مطابقة لسير خطى رجل، وكثيرا ما قمنا بمسارات راجلين إما للتخفيف عن البهيمة، أو لمتعة المشي طيلة مرحلة من ست إلى ثمان ساعات؛ وتبعا لذلك حضرنا تدشين مسارات طرقية غير معبدة في نونبر 1928 حتى فج تيشكا من جهة، ومسجد تنمل من جهة أخرى.

في الأيام الأولى من شهر ماي 1931 اجتزنا تيزي -ن-تيشكا بالسيارة لبلوغ ورزازات ودادس، وهي مرحلة خمس ساعات انطلاقا من مراكش. وإذا كنا قد استمتعنا بالسرعة على المسارات المستقيمة وفي المناطق غير المفيدة بالنسبة للسائح، فإننا انتهينا إلى الأسفل تقريبا من ذلك على أيام مراحلنا مشيا وعلى متن البغال، حيث كان بإمكاننا التوقف بحسب نزواتنا، ومعاينة الموقع والاستمتاع به، لا الفرار منه مع سرعة السيارة.

هل عاينَّا حقيقة المنظر بسرعة 30 كلم/ الساعة من خلال تسلق المنعرجات المبهرة التي تقود إلى تيشكا؟ وهل شاهدنا عبر الطريق الجديدة[1] قصبات أغبالو وزرقطن بوادي ردات التي تشرف عليها من الأعلى؟ وهل واجهنا ترحاب الأمازيغ الجبليين، أعيانا أو فلاحين بسطاء؟

(1) المسلك الذي يحمل في الخريطة الطبوغرافية الرقم 2016، والذي يجتاز المقدمة الشمالية للأطلس الكبير الأوسط انطلاقا من أيت عادل بالقرب من سد مولاي يوسف مروراً بأيت عدي وأبادو، إلى حين التقائه بالطريق الوطنية رقم 9 على الضفة اليمنى لواد الزات إلى الشرق من أيت أورير.

لقد لمحنا بالكاد القرية بسفح بو أغيول، حيث من حجرة الضيافة الكئيبة لمنزل بالطابية قام شيخ القرية بنثر بتلات الورد على أرضية التراب المدكوك تعبيرا عن الترحيب.

تقدر المدة حاليا بنصف يوم من مراكش لبلوغ قصبة تلوات، وفيما سبق كان الأمر، وهذا حتى الأمس تقريبا، يستوجب مسيرة ثلاثة أيام. لقد وفرت الطريق السيارة الوقت بالطبع، غير أن المشاعر والمتع ضاعت.

شرع في طريقي الأطلس الكبير سنة 1924 بمبادرة من الجنرال دوكًان (Gl. Daugan)[1]، كومندان ناحية مراكش في تلك الفترة، ومدتا صوب الجنوب من طرف الجنرال هوري (Gl. Huré)[2] بمساعدة مصلحة الاستعلامات ثم مصلحة الأشغال العمومية التي عدلت بعض المسارات، بما أن الطريق الأولى قد خطت من أجل الاستخدام على وجه السرعة. وقد تم تدشينهما، كما سبق لنا قوله، في مسارهما الأول لاقتحام الفجاج في نونبر 1928 من طرف المقيم العام سطيكَ (Steeg).

* * *

في سنة 1931، عند بداية الطريق التي تعبر بلاد كًلاوة، تم نصب جسرين بالإسمنت المسلح، أحدهما على واد أوريكة على بعد 15 كلم من مراكش، والثاني على واد زات عند سفح أيت أورير، لتأمين العبور دون الخشية من فيض الأودية. وعبر أخاديد العركَ وقرية تادارت الصغيرة حيث يستقبل نزل رائع المسافر، تصل الطريق رقم 502 [3]، بما أنه وجب نعتها بذلك المسمى، بعد العديد من المنعرجات فوق أمسين،

---

(1) ألبير دوكًان (1866-1952): قائد عسكري فرنسي، ومولع بالفنون. ساهم منذ 1917 في قيادة فيلق من الجيش الفرنسي بالمغرب، وعين قائدا لناحية مراكش (1922-1927)، وأثناء ذلك أسندت إليه قيادة الجبهة الشمالية في حرب الريف (1925) تاركا ناحية مراكش تحت انتداب الجنرال نوكًيس؛ وفي سنة 1927 غادر المغرب لقيادة الجيش الفرنسي السادس عشر بمونبوليي. انظر:

Augustin Bernard, Une mission universitaire au Maroc, **Annales de géographie**, Année 1924, pp 193-196.

(2) أنطوان هوري (1873-1949): ضابط فرنسي ومهندس شهير بعمله أثناء عهد الحماية بحكم تخصصه التقني، إذ عمل بالمغرب رئيساً للمهندسين الموظفين (1925-1926)، قبل أن ينخرط في قيادة القوات العسكرية انطلاقا من تلك السنة وحتى 1938، ارتقى خلالها إلى مرتبة القائد الأعلى للقوات بالمغرب (1931-1935)؛ قبل أن يعود إلى تخصصه الأصلي. انظر عبد القادر بوراس، مادة هوري، **معلمة المغرب**، ج 22، ص 7527.

(3) الطريق الجهوية التي تحمل في الخريطة الطبوغرافية الراهنة الرقم 105.

فج تيشكا على بعد 112 كلم من مراكش. هناك تتوقف الطريق على علو 2.100م، فيما تعود الطريق غير المعبدة لمصلحة الشؤون الأهلية.

وقد فرض تنظيم زمني على السفح الجنوبي للأطلس جراء المنعرجات العديدة وضيق الطريق غير المعبدة، فتمر السيارات من الزوال إلى منتصف الليل من تادليست التي هي مركز عسكري للمراقبة أسفل الفج نوعا، إلى أيت بنحدو، أي من الشمال إلى الجنوب[1]؛ ومن منتصف الليل إلى الزوال من أيت بنحدو إلى تادليست، من الجنوب إلى الشمال. و23 كلم بعد فج تيشكا تتفرع طريق[2] تصل إلى تلوات على علو 1.822م. وبعد أيت بنحدو تتجه الطريق نحو ورزازات على علو 1.162م، على بعد 88 كلم من فج تيشكا، أي 200 كلم من مراكش.

في يونيو 1929 قام المقيم العام لوسيان سان (Lucien Saint) على بعد نحو 50 كلم من ورزازات صوب الشمال-الشرقي بتدشين مقطع الطريق غير المعبدة حتى سكورة[3]. وإلى الأمام، على بعد 110 كلم عن ورزازات بالقرب من قلعة مكَونة نصب جسر ذو مسارين من 32.50 م لكل منهما مع طريق من 8 م في أبريل 1931، كان الماريشال فرانشي ديسبيري (Ml. Franchet d'Espérey)[4] أول من عبره بمعية الجنرال هوري. وفي ماي 1931 أقام الكولونيل شاردون (Cl. Chardon) على بعد 150 كلم من ورزازات مركز إيميتر[5].

---

(1) من الاحتراز التوفر على إذن بالمرور لبلوغ السفح الجنوبي. وتقديم الطلب بمراكش إما من مكتب الناحية، أو من هيئة المبادرة والسياحة، أو من كومندان إقليم أكَادير (المؤلفان).

(2) ينطبق الوصف استنادا إلى الخريطة الطبوغرافية على نقطة تفرع الطريق الجهوية رقم 1506 عن الطريق الوطنية رقم 9.

(3) الطريق الوطنية الحالية رقم 10.

(4) لويس فرانشي ديسبيري (1856-1942): ضابط فرنسي مخضرم، بلغ مرتبة المارشالية (1921). بعد قضائه فترة في الجيش الفرنسي بمختلف الجبهات (الجزائر والصين واليابان) في الربع الأخير من القرن 19 ومطلع القرن 20، أسند إليه المقيم العام ليوطي قيادة القوات الفرنسية بالمغرب (1912) إلى حين اندلاع الحرب العالمية الأولى ثم تداعياتها في البلقان. وفي 1921 وقد أضحى مارشالا أسند منصب المفتش العام لقوات شمال إفريقيا؛ واستثمارا لمعرفته الدقيقة بالشؤون الإفريقية عين رئيسا للجمعية الجغرافية (1933)، وانتخب إلى جانب السياسي ليون بيرار عضوا بالأكاديمية الفرنسي (1934). انظر:

Général Paul Azan, **Franchet d'Espèrey**, Flammarion, Paris 1949.

(5) إيميتر: قرية على الطريق الوطنية رقم 10 على بعد نحو 31 كلم إلى الجنوب-الشرقي لتنغير، و21 كلم إلى الشرق من بومالن دادس.

لم يتم نصب المراكز المتقدمة تبعا لسياسة احترازية إلا بإتمام الطريق غير المعبدة، حتى يوجد على الدوام رابط مع المركز الذي بتقدمه اليوم يصبح في الغد خلفا؛ وبهذا تمكنت القوات المتحركة لناحية مراكش، المنطلقة من إيميتر، في 14 نونبر 1931 من احتلال موضع فم القوس، على بعد 15 كلم بعيدا، وفي 18 نونبر تنغير التي هي المركز الحيوي لتدغة. ودون حادثة أتم هذا الاحتلال طريقا قابلة للاستغلال بما أنه سبق توجيهها للتمدد حتى تدغة التي يسيطر عليها حتى الآن أحد خلفاء الگلاويين. نحن هنا، عبر أخاديد تدغة، على بعد 50 كلم من المركز الجديد لتافيلالت.

في 22 يناير 1932 وصلت إلى المقيم العام البرقية اللاسلكية التي تفيد بنجاح تحركات قوات الاحتياط يوم 15 يناير في واحات تافيلالت، ملاذ تمرد قاده الثائر بلقاسم النگادي[1]. لقد تم احتلال الواحات من طرف أتباعنا وجنود الگوم التابعين لنا، وأخذ النگادي طريق الفرار. إنها النتيجة السعيدة لمجهود سياسي وعسكري أقره السيد لوسيان سان، تم بصبر واحتراز، والذي انطلق في عهده على يد الجنرال هوري، القائد العام للقوات، وتحت إشراف الجنرال جيرو (Gl. Giraud)[2].

(1) النگادي، محمد بن أبي القاسم: ينتسب أصله إلى الأدارسة الذين استقر بعضهم بجهة أنگاد المحيطة بمدينة وجدة. انضم إلى تمرد بوحمارة الزرهوني فأضحى أخلص أعوانه، ولما اعتقل هذا الأخير فر إلى تافيلالت، ومنها انطلق تحت إمرة مبارك أوشطو التوزونيني في قيادة المقاومة ضد الوجود الفرنسي انطلاقا من جبل صاغرو، فتألق بانتصاراته، وخصوصا في موقعة البطحاء (1918)، إلى أن اندلع الخلاف بين الرجلين حيث دبر النگادي أمر اغتيال غريمه (1919). وكان عليه أن يخفف من الصرامة السابقة للتوزونيني تجاه مرؤوسيه قصد استمالة القلوب، وهو ما نجح فيه حيث التف عليه الناس طلبا للجهاد، فتواصلت حملته ضد الفرنسيين إلى أن أجبره عدم التكافؤ العسكري على الانسحاب إلى سوس رفقة أتباعه من أيت عطا (1931)، من غير أن يحول ذلك دون سقوطه في قبضة قوات الاحتلال (1933)، حيث نقل إلى أنگاد، وظل بها إلى حين وفاته سنة 1958. انظر أحمد عمالك، مادة النگادي، **معلمة المغرب**، ج 22، ص 7463-7464.

(2) هنري جيرو (1879-1949): سياسي وعسكري فرنسي، أرسل سنة 1920 إلى المغرب استجابة لطلب المقيم العام ليوطي، وساهم في حرب الريف وهو من أسرف على استسلام ابن عبد الكريم الخطابي (1926)، وأسندت إليه قيادة الناحية العسكرين للتخوم المغربية-الجزائرية (1930)، وكان من قد القوات الفرنسية للقضاء على آخر جيوب المقاومة في تافيلالت وجبل صاغرو (1934). انظر:

Le Général Giraud, **Mes évasions**, Hachette, Paris 1946

انتقل السيد لوسيان سان على الفور إلى تافيلالت، وفي 27 يناير إلى الريصاني[1]، قصر بلقاسم، وبالقرب من أطلال سجلماسة العاصمة القديمة تلقى استسلام 125 من قصور الواحة تضم 12.000 أسرة، أعلنت وفاءها لسلطان المغرب الذي تعود أصول أسلافه إلى تافيلالت.

غربا، جهة دادس وتدغة، مدت الطريق غير المعبدة حتى تنغير، وتتويجا للسياسة المغربية تم في 11 فبراير 1932 احتلال وادي فركلة دون حوادث تحت قيادة الجنرال كاترو (Gl. Catroux)[2]، محققا بذلك الربط بين ناحيتي مراكش وتافيلالت. وعن قريب ستمدد الطريق الدائرية للجنوب حتى كولومب بشار والتخوم الجنوبية الجزائرية.

* * *

إن الطريق أو المسلك الذي أنجزه ضباطنا في الشؤون الأهلية وجنود الفيالق، هو صانع السلام الأعظم، بما أنه ييسر الحياة؛ وندرك حجم معاناة سكان الجنود في التنقل، وبإتمام الطريق غير المعبدة تقوم الحافلة السيارة بخدمتهم. وهكذا عبر الحافلة البريدية التي تربط ورزازات وسكورة لسنا إلا على بعد مسيرة يوم من مراكش، فيما كان الأمر يتطلب قبل ذاك توقع عشر مراحل عسيرة مشيا. وسيدرك العنصر المحلي فائدة الطريق والحافلة.

* * *

نحو الجنوب، سيشكل جبل باني[3] حاجز المغرب المنظم، وقد بادر قائد دائرة

(1) الريصاني: مدينة عريقة بناحية تافيلالت جنوب أرفود، تشترك من حيث موضعها مع الموقع الأثري لسجلماسة، وتتألف من عدة قصور مآثرية. انظر موحى حدوش، مادة الريصاني، **معلمة المغرب**، ج 14، ص 4526-4527.

(2) جورج كاترو (1877-1969): عسكري فرنسي، عين مستشارا لليوطي بالجزائر (1906)، ثم التحق به أثناء حرب الريف بالمغرب. وأضحى قائدا لناحية مراكش (1931-1934)، فقاد عملية إخضاع جنوب المغرب، قبل تعيينه على رأس القوات الفرنسية بالمشرق العربي. انظر حفيظة بلمقدم، مادة كاترو، **معلمة المغرب**، ج 20، ص 6714.

(3) جبل باني: سلسلة جبلية طويلة جنوب الأطلس الصغير باتجاه جبل صاغرو شمال زاكَورة، ذات اتجاه شمالي/شرقي-جنوبي/غربي انظر مبارك أوسديد، مادة باني، **معلمة الغرب**، ج 4، ص 1016-1018.

ورزازات في مستهل أكتوبر إلى إقامة مركز بواحة فم زكَيد[1] جنوب ألوكَوم[2]، والواقع فوق جبل باني على بعد نحو 100 كلم عن ورزازات. وبذلك فإن نقطتي المعبر حروستان، إحداهما في فم زكَيد، والثانية في المنعطف الذي يحدثه واد درعة.

مجمل منطقة جنوب الأطلس الكبير تلك وحتى باني في حلقة واد درعة تم استطلاعها من طرف الفيكونت دو فوكو سنة 1883، ومن طرف الماركيز دو سيكَونزاك من سنة 1899 إلى 1905، ثم لاحقا من طرف البروفيسور لوي جونتيل (L. Gentil)[3]؛ وتتضمن وثائقهم معلومات قيمة بالنسبة لضباط مصلحة الاستعلامات.

من ورزازات لبلوغ سوس، وتارودانت وأكَادير، تنطلق الطريق غير المعبدة من مركز أيت بنحدو؛ وأبعد من ذلك بحوالي 25 كلم شيد سلاح الهندسة العسكرية على واد إريري جسرا معدنيا بثلاثة مسارات من 27م على طول إجمالي قوامه 82م.

* * *

وعلى غرار طريق تيشكا رقم 502، تم الشروع في طريق مراكش إلى تارودانت عبر تيزي-ن-تاست[4] سنة 1924، وفي السنة الموالية وصلت إلى أسني على ارتفاع 1.245م، و48 كلم عن مراكش عبر أخاديد مولاي إبراهيم. وهي تبتعد عن وادي غيغاية لتصعد انطلاقا من تاكَاديرت-ن-بور وادي نفيس. وخلف قصبة تاكَندافت فوق مولديخت، وبعد أن تترك على يمينها مسجد تنمل على علو 1.317م، وتربط بدورها طريقا غير معبدة

(1) واحة فم زكَيد: واحة عند السفح الجنوبي للأطلس الكبير الأوسط جنوب المحاميد وإلى الشمال من واد درعة وتقع على بعد نحو 125 كلم من زاكَورة غربا، تخترقها الطريق الوطنية رقم 12، وتضم عددا من القصور السكنية.

(2) لعلها المحاميد المومإ إليها أعلاه.

(3) لوي جونتيل (1868-1925): جغرافي وجيولوجي أكاديمي فرنسي خريج السوربون (1899)، متخصص في مجالات المغارب. شارك في بعثة المركيز دو سيكَونزاك لاستكشاف الأطلس الغربي (1904-1905)، وواصل استكشافاته بعد ذلك تحت حماية عسكرية (1906-1907). وبناء على النتائج التي حصل عليها كان من اقترح إنشاء المعهد العلمي الشريف (1913)، وكلف بوضع خريطة جيولوجية للمغرب وضبط مصادر المياه. وغداة إنشاء المعهد المذكور (1920) واصل استكشافاته لفائدة الهيئة الجغرافية، قبل أن ينتخب عضوا في أكاديمية العلوم – شعبة الجغرافية والملاحة (1923)، ويواصل أبحاثه بالأطلس الكبير إلى حين وفاته. وقد كرمته إدارة الحماية بإطلاق اسمه على بلدة عصرية بالمغرب (مدينة اليوسفية راهنا). انظر:

Jacques Bourcart, La vie et l'œuvre de Louis Gentil (1868-1925), **Bulletin de la Société géologique de France**, vol S7-III, 1961, pp 244-256.

(4) الطريق الجهوية رقم 203.

خاصة تجعلها على بعد 114 كلم عن مراكش، تتصل بتيزي-ن-تاست على علو 1.200م.

وبما أنه تم الشروع فيها انطلاقا من تارودانت نحو الأطلس الكبير، تم الربط بين مقطعي الطريق في دجنبر 1931، وقامت أولى السيارات المتحركة انطلاقا من مراكش في نهاية دجنبر بقطع الـ 230 كلم من المسار في غضون نصف يوم من مراكش إلى تارودانت.

قام جلالة السلطان سيدي محمد في 18 نونبر 1931 بموكبه المكون من السيارات المتحركة بزيارة تنمل، مهد الأسرة الموحدية في بلاد گندافة، وواصل طريقه صوب تيزي-ن-تاست؛ وأياما قبل ذلك كان جلالته قد اقتحم الأطلس الكبير للوصول إلى تلوات مهد الگلاويين، وبذلك كان قد عاين الفجين اللذين عبرهما مر غزاة المغرب الذين أضحوا سلاطين. إنها نزهة ذات اهتمام استثنائي سواء من وجهة النظر السياسية أو السياحية. فما الذي كان سيخاله أشياع المهدي عند سماع أبواق السيارة الإمبراطورية؟

* * *

وكمعلومات تكميلية نشير إلى وجود نزل بتادارت على طريق تيشكا، ووجود فندق في طور التشييد بورزازات. لقد أعدت شركة الملاحة باكي (Paquet)[1] بتارودانت قصرا محليا كفندق، وستشيد فندقا للسياحة بأگادير[2]. وعلى طريق تاست يوجد نزل جيد بسفح أسني، مثلما بإيجوكاك أگونديس[3] حيث بإمكان السائح عند الحاجة إيجاد غرف مثلما هو الحال بتادارت. ويوما بعد آخر ينفتح الدخول إذن إلى الجنوب بتعاظم في وجه المسافرين.

* * *

وقبل ازورار ذكريات جولاتنا في الأطلس الكبير، حاولنا تثبيتها لنا ولرفاق مراحلنا عبر گلاوة وگندافة ونواحي القصبات الجميلة، والتي خطت فيها مساراتنا

(1) شركة باكي: شركة ملاحية فرنسية أسسها الفرنسي نيكولا باكي بمارسيليا (1909)، قبل أن يتم بيعها إلى الشركة الملاحية للشحانين المتحدين.

(2) سيتم الانتهاء من فندق تارودانت في ربيع 1932، ومن فندق أگادير خلال سنة 1933 (المؤلفان).

(3) إجوكاك: قرية صغيرة على الضفة اليسرى لواد نفيس، تبعد عن تالات-ن-يعقوب 3 كلم إلى الشرق.

بعناية ضابطي مصلحة استعلامات مراكش، الكومندان فوانو (Voinot)[1] وأورطلييب (Orthlieb)، وبدعم سامي من الجنرال دوگان، ثم الجنرال هوري.

في كل عودة من الجبل كنا نتوجه لإطلاع المارشال ليوطي عن اكتشافاتنا السياحية والجغرافية، والذي كان يعاين باهتمام جولاتنا بالأطلس الكبير، لأن مجموعتنا الصغيرة المؤلفة من أربعة إلى خمسة أشخاص بإقرار مصداقيتها لدى الأمازيغ – الذين طلبت منهم الاستضافة على سطح منزل بالقرية، أو أحيانا، ولم يكن ذلك طلبا لرفاهيتنا، بغرفة بالقصبة – كانت تولد بالمقابل ثقتهم بنا، وتلك هي السياسة الحكيمة.

والآن، توسعت قواتنا بشكل كبير في الأرض الخاضعة للسلطان باحتلال تافيلالت ومنطقة دادس، ومن المحتمل عن قريب أن تتمكن السياحة المغربية من مد مجال عملها حتى القفر، حيث ستصبح مراكش البوابة الأبهى والأكثر جاذبية على رأس طريق موسومة بالقصبات التي سعينا إلى إبراز مدى أهميتها. فإن نجحنا سنكون بلغنا الغاية.

بالدارالبيضاء، في 15 فبراير 1932

(1) لوي فوانو (1869-1960): ضابط عسكري فرنسي، وكاتب وجغرافي ومؤرخ، شعل مهام عسكرية رفيعة بالمغرب، ومكنته تلك المناصب من تأليف عدد من المؤلفات من أبرزها «على الخطى المظفرة لمخضعي المغرب» (Sur les traces glorieuses des pacificateurs du Maroc) (1939).

بيبليوغرافيا الكتاب

* Africain (Léon l'), Description de l'Afrique, trad. Ed. de Scheffer, 1896-1897.

* Aubin (E.), Le Maroc d'aujourd'hui, 1902.

* Bernard (A.), Les confins algéro-marocains, 1911.

* Blanche (Vidal de la), Tableau de géographie de la France en 1907.

* Brives, Voyages au Maroc, 1909.

* Célérier (J.), Le Maroc, 1931.

* Chatinières (Dr), Dans le Grand Atlas marocain, 1919.

* Chavrebière (Coissac de), Histoire du Maroc, 1931.

* Cehnier (A.), Recherches historiques sur les Maures, T III.

* Doutté (E.), En tribu, 1914.

* ------------, Marrakech, 1905.

* Foucauld (de), Reconnaissance au Maroc.

* Gautier, Les siècles obscurs du Moghreb, 1927.

* Gsell (S.), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, 1928.

* Hardy (G.) et Célérier (J.), Les grands lignes de la géographie du Maroc, 1922.

* Justiniard (L.), Notes sur l'histoire du Sous au XIXe siècle, in Hespéris, 1922.

* Laoust, Mots et choses Berbères, 1920.

* ----------, Noms et cérémonies des feux de joie chez les Berbères du Haut et de l'Anti-atlas, dans Hespéris, 1er trimeste, 1921.

* Macdonald (David), Mœurs et coutumes des Thibétains, traduction Billot, 1939.

* Marmol Carvajal, L'Afrique, traduction de Pérot d'Ablincourt, 1667.

* Martin (A.), Les Oasis sahariennes, 1908.

* Masqueray (de), Formation des cités chez les sédentaires de l'Algérie, 1886.

* Michon (Etienne), Eloge funèbre de M. Stéphane Gsell, membre de l'Académie, Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 76ème Année, n° 1, 1932.

* Montagne (R.), Les Berbères et le Maghzen, 1930.

* ---------------, Villages et Kasba berbères, 1930.

* Neitner (L.), Notes sur le Haut-Atlas, Revue de Géographie Marocaine, 1930.

* Paris (d'A.), Documents d'architecture berbère, 1935.

* Pennès et Spillman, Les pays inaccessibles du Haut Dra, in Revue de Géographie marocaine, n° 1 et 2, 1929.

* Picard (P.), Le Maroc, 1925.

* Quedenfelt (M.), Division et répartition de la population berbère au Maroc, traduction H. Simon, 1904.

* Rohlfs, Mein erster Aufenthalt in Marokko.

* Segonzac (R. de), Au cœur de l'Atlas, 1910.

* Spillman (Lt.), Description géographique de la Haute vallér du Dra, in Revue de Géographie marocaine, n° 2, 1930.

* Terrasse (H.), Le sens artistique des Marocains, in Bulletin de l'Enseignement du Maroc, mai 1924.

* Thiollet (Jean-Pierre), Stéphane Gsell, in Je m'appelle Byblos, H & D, 2005.

* Volnot, Les Ourika, in Revue de Géographie marocaine, 1927.

البيبليوغرافيا المعتمدة في الترجمة

* السوسي (المختار)، **المعسول**، ج 16، الدار البيضاء 1960.

* طيراس (هنري)، **القصبات الأمازيغية بالأطلس والواحات - المباني الكبرى بالجنوب المغربي**، ترجمة حسن أميلي، معهد الشارقة للتراث 2019.

* كفناني (مولاي حسن)، **قبيلة أولاد أبي السباع في القرن 19**، رسالة د. د.ع.، (مرقونة)، كلية الآداب، الرباط 1988.

* الكُندافي (عمر)، **قائد من مغرب الأمس - الطيب الكُندافي**، دار النشر مرسم، الرباط 2016.

* **معلمة المغرب**، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1989-2005.

* الوزان (الحسن)، **وصف إفريقيا**، ط 2، ج 1، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ودار الغرب الإسلامي، الرباط/ بيروت 1983.

* Admou (Hassan) et Soulaimani (Abderrahmane), Massif du Siroua, Notes et Mém. **Serv. Géol. Maroc**, n° 563, 2011.
* Angelier (François), **Dictionnaire des Voyageurs et Explorateurs occidentaux**, Pygmalion, 2011.
* Azan (Général Paul), **Franchet d'Espèrey**, Flammarion, Paris 1949.
* Bernard (Augustin), Une mission universitaire au Maroc, **Annales de géographie**, Année 1924.
* Broc (Numa), **Dictionnaire des explorateurs français** du **XIXe siècle**, T 1, Afrique, CTHS, 1988.
* Caplat (Guy), Albert Charton, Publications de l'Institut national de recherche pédagogique, N° 13, Année 1997.
* Castries (H. de), **Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc**, 1ère série, Pays-Bas, 1906.
* Cenival (Pierre de), **Le Comte H. de Castries, Hespéris**, 1927.
* Delorme (René), **Gustave Doré, peintre, sculpteur, dessinateur et graveur**, Ludovic Baschet, Paris 1879.
* Destrez (Chantal), Jacques Majorelle - **Carnet de route d'un peintre dans**

l'Atlas et l'Anti-Atlas - 1922, **Péristyles**, 14 (1999).
* Gandini (Jean), **Pistes du Maroc à travers l'histoire, T 1, Haut et Moyen Atlas,** éd. EXTREM-Sud SERRE, 2006.
* Giraud (Le Général), **Mes évasions**, Hachette, Paris 1946.
* Le Prévost (Jacques), **El Glaoui**, Paris, 1968.
* Mauss (Marcel), Edmond Doutté, in **L'Année sociologique**, nouvelle série, T 2, Librairie Félix Alcan, Paris 1927.
* Montagne (Robert), **Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc**, Paris 1930.
* Pelin (Philippe), **Instruments d'optique et de précision**, Paris, 1900.
* Peyron (Michaël), Contribution à l'histoire du Haut-Atlas oriental – Les Ayt Yafelman, **in: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée**, vol 38, Année 1984.
* ---------, Glaoui / Glaoua, **Encyclopédie berbère**, vol. 21 (Edisud 1999).
* Pickens (Samuel), Renaudeau (Michel) et Richer (Xavier), Le **Sud marocain**, ACR Éditions, 1993.
* Pouillon (François), **Dictionnaire des orientalistes de langue française**, éd. Karthala, Paris 2012.
* Pouillon (F.) et Rivet (Daniel), **La Sociologie musulmane de Robert Montagne**, éd. Maisonneuve & Larose, Paris 2000.
* Youssoufi (Rachid), **Maraboutisme et société au Maroc – L'exemple de Moulay Brahim**, Thèse de doctorat en sociologie, Université Paris 7, 1984.

فهرس الموضوعات



قصبات الأطلس الكبير مارك دو مازيير وجوزيف كولفان 2022

إن القصبات التاريخية المعروفة، مثل قصبات تلوات، وأمريديل، وتاوريرت (ورزازات)، وأولاد عثمان (زاكَورة)، وكَندافة وغيرها، تعتبر -إلى جانب دورها التاريخي- تراثاً متميزاً؛ إذْ بتكيُّفها مع محيطها الطبيعي، حيث الجماعات المتجانسة، ولمواجهة قساوة المناخ وتحركات الغزاة، كان لابد من اختيار نمط سكني محصَّن، مثّلته القصبات في المواقع الملائمة، أحياناً في سفوح الأودية، وأحياناً أخرى على ربوات نافرة، وحتى عند قمم بعض المرتفعات في أحايين ثالثة، واختلط في بنائها استخدام الطين بالحجارة، مانحاً لقصبات الجبل خاصية مغايرة إلى حد ما مع قصبات الواحات طينية الأصل.

Les *Casbahs* historiques connues, comme celles des Telouet, Amridil, Taourirt (Ouarzazate), Ouled Othman (Zagora), Goundafa et d'autres, constituent –outre de leur rôle historique– un patrimoine particulier. En s'adaptant à leur milieu naturel, où virent des groupes homogènes, et pour affronter les rigueurs du climat et les mouvements des envahisseurs, il était impératif de choisir un type d'habitation fortifié, représenté par les *Casbahs* dans des lieux appropriés. Elles sont édifiées tantôt sur les pentes des vallées, tantôt sur des collines élevées ou parfois sur les sommets de certaines hauteurs. Les matériaux de construction associent l'argile et la pierre, donnant ainsi aux *Casbahs* de montagne un aspect quelques peu différent de celui des *Casbahs* des oasis qui sont, à la base, en matière argileuse.

40 درهم